آلام الذاكرة

عبدالباسط إبراهيم واكية

مجموعة قصصيّة

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2019

آلام الذاكرة

مجموعة قصصيّة

عبد الباسط إبراهيم واكية

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني

البريد الإلكتروني

kesasandhekayatpub@gmail.com

موقع الدار

https://kesasandhekayatpub.blogspot.com/

للتواصل عبر ماسنجر صفحة الدار

m.me/kesasandhekayat

فريق عمل الدار

أ. رمضان سلمي برقي

أ. حسن كشاف

أ. هشام وهبي

العنوان: آلام الذاكرة

النوع الأدبي: مجموعة قصصيّة

المؤلف: عبدالباسط إبراهيم واكية

المُدقِّق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج: فريق الدار

تصميم الغُلاف: فريق الدار

سنة النشر: 2019

الحالة: حصريا

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار:19

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2019

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الصفحة الجروب الموقع

إهداء...

إلى روح معلّمتي في الصّف الثّالث – رحمها الله – التي كانت تقرف من ثيابي المرقّعة، فأجلستني في المقعد الأخير، وما تركتْ مناسبة إلا وسخرت مني ليضحك عليّ باقي الأولاد بينما أغرق في دموعي!

معلمتي

ليتك الآن أمامي، لأقول لك إنّ تلك الثّياب كانت لأخي الذي يكبرني، وقد آلت إلى أخي الذي يصغرني، صحيح أنّها كانت مرقّعة، ولكنّها كانت نظيفة.

معلّمتي :

ليتك الآن أمامي، لأقول لك إنّني لم أكن سيّئا، فقد كنت هادئا، وكان خطّي جميلا، ودفاتري مرتّبة، وإنّني كنت أحفظ دروسي وأكتب واجباتي...

أنت لا تعلمين ذلك، لأنّك كنتِ تنظرين في دفاتر الجميع إلا دفتري، وتستمعين إلى حفظ الجميع وتهملين الاستماع إليّ !فأجلس في الفصل كأنّني مقعد مكسور.

كنتُ أنمو بصمت حتّى لا أزعجك، كعشبة قزمة غريبة تنبت على حافّة رصيف.

معلمتي:

تذكرين عيد المعلم!؟

يوم جاءك الأولاد بالهدايا الزّاهية، وجئتُ إليك بعشر بيضات بلديّات، يومها، أخذتِ الهدايا من الجميع ولم تأخذي هديّتي، مع أنني أمضيت عشرة أيام في جمعها، كلّ يوم أدخل قنّ الدّجاجات عشر مرات حتّى أجد البيضة!

يومها امتلأت أكمامي بالدّمع!

معلمتي:

أذكر مرّة أنّني رأيتك في المدينة من بعيد عندما صرتُ في الجامعة، لم أجرؤ يومها على الاقتراب منك والسّلام عليك أو تقبيل يدك كما فعلتُ مع معلمتي في الصّف الثّاني، وقد كانت لديّ رغبة كبيرة في فعل ذلك...

لقد خفتُ منك.

معلّمتي:

ليتك أمامي الآن، لأشكرك على موقفك منّي، فقد كان الدّافع الأكبر حتّى أكون إنسانا، لا ظلّ إنسان.

معلّمتي:

أنا أسامحك، الآن وأمام الله، وأدعو لك دائما بالرّحمة، فلربما ندمتِ على موقفكك.

أو أنك كنتِ تفعلين ذلك من دون قصد.

أو ربّما لم تفعلي ذلك كلّه أصلا، وكلّ ما في الأمر أنّني كنتُ واهما في تصوّري .

معلّمتي:

أهديك مجموعتي القصصيّة هذه، ولا أظنّك سترفضين هديّتي في هذه المرّة.

د .عبد الباسط ابراهيم واكية

حمص في1-7-2019

فهرس القصص

دورة الحياة ١٠

مربّع الجحيم ١٣

الدّراجة الحمراء ١٧

إرث أجدادي ٢٠

نار النّدم ٢٥

طريد البؤس ٣٠

آلام الذّاكرة ٣٤

أحلامٌ مؤجّلة ٤٣

ميلاد مجهول ٤٧

جراء العشوائيّات ٥١

مهنة حرّة ٥٤

عندما يزحف الموت! ٥٨

الصّندوق الأبيض ٦٢

الفرح الغائب ٦٥

عبير الذّكريات ٦٧

القلب الدّافئ ٦٩

الوليمة الضّائعة ٧٣

هموم المعلّمات ٧٥

الكتاب الأصفر ٧٨

ميراث أبي ٨٥

جروح الرّوح ٨٩

متجر الدّموع ٩٣

زوج الحمام ٩٧

قاطعة الطّريق ٩٩

المغرورة ١٠٢

حمّام الخميس ١٠٥

زينب ١٠٨

لوحة على جدار ١١١

ساحرة في الحافلة ١١٥

جسر بين قلبين ١١٨

قتل بالخطأ ١٢١

نبذة عن المؤلف ١٢٤

دورة الحياة

عندما متُّ ذرف أهلي وأصدقائي عليّ الكثير من الدّموع، ثمّ واروني التّراب ومضوا.

تركوني لمصيري المحتوم، إذ صعدتْ روحي إلى السّماء تحمل ما قدّمته يداي، أمّا جسدي، فقد أخذ يغور في أعماق الأرض شيئا فشيئا حتّى وصلتُ إلى طبقة جيولوجيّة قال لي سكّانها عن اسمها، ولكنّني نسيته بسبب ذاكرتي المثقّبة.

هناك في أعماق الأرض، كان الضّغط والحرارة شديدين جدّا، حتّى إنّ جسدي ذاب مع أجساد الدّيناصورات.

تحت هذه الظّروف القاسية، أخذت خلاياي تتحوّل إلى سائل لزج أسود وذي رائحة غريبة، لابد وأنّه النّفط الخام الذي قرأت عنه يوما.

وأنا على هذه الحال، نزل فوقي أنبوب معدنيّ غليظ، مصحوب بضغط سلبيّ، سحبني إلى وجه الأرض ثانية إلى داخل برميل أزرق، كان معي في البرميل ديناصور صغير مجنّح! سافرنا على ظهر باخرة في رحلة عبر أعالي البحار، لم أعلم . أنا المواطن عربيّ – أنّ لي قيمة إلا عندما صرتُ نفطا، فقد بدأ الجميع يتصارعون عليّ، وبدأتْ مقارنتي مع أنواع النّفط الأخرى من حيث جودتي مقارنة مع سعري الزّهيد!

انتهى بي المطاف بعد رحلة طويلة في البحار والأسواق داخل أنابيب مصفاة للنفط في أوربا، في المصفاة شاهدت قاتلا جعلوا منه شحما للمسنّنات والجنازير التي تسير عليها، كنت أسمع صراخه وعويله عندما يدور بين المسنّن والجنزير!

إنه انتقام الله...

بالنّسبة لرفيق الرّحلة وشريكي في البرميل –الدّيناصور المجنّح– فقد صار وقودا للطّائرات، أما أنا فصرت مادّة أوليّة لصنع الإطارات.

شكّلوني في أحد المعامل إطارا لجرّار زراعيّ، اشتراني مزارع في الرّيف الإنكليزيّ يدعى السّيّد (رالف)

في الحقيقة كانت تلك الأيّام التي قضيتها إطاراً في جرّار السّيّد رالف أجمل أيّام حياتي، إذ كان يعاملني بلطف، فلا يحمّل الجرّار أو يشدّ به فوق طاقته، ناهيك عن حرصه على بقائي نظيفا ولامعا على الدّوام.

وقد باعني إلى سوق الإطارات المستعملة وأنا في أوج شبابي قبل أن أتآكل.

تمّ شحني من سوق الإطارات المستعملة الأوربيّ في رحلة عودة طويلة إلى بلادي الأصليّة، حيث اشتراني أحد أحفادي إطاراً مستعملاً، كم هو فظ وغليظ هذا الحفيد، لم أكن أتصور أن يكون في ذرّيتي شخص قاسٍ كهذا الحفيد الوغد!

لم يراعِ معاناتي من النّفخة عندما كنت إنسانا! فقد ملأني بالهواء إلى أقصى حدّ ممكن حتّى أوشكت أن أنفجر!

ليس هذا فحسب، بل كان يحرث الأراضي الصخريّة، ويشدّ بجرّاره عشرة أطنان من الشّوندر السّكري حتّى هرمت بسرعة كبيرة فتآكلتْ تلك النّقوش البارزة على سطحي وظهرت الخيوط والأسلاك من أحشائي.

وعند وصولي إلى هذه الحالة باعني لصانع القفاف الذي سلخ مني شريحة كبيرة صنع منها قفّة بأذنين، ثم رمى ما لا يمكن الاستفادة منه في الحاوية، فأخذني بعض الشّبان وأحرقوني في إحدى مظاهراتهم، أما حفيدي المغضوب فقد عاد واشترى القفّة ليحمل بها روث الأبقار، ثم يذهب بي إلى الحقل ليملأني بالحجارة دون رحمة.

كل هذا قبلته ورضيت به، أمّا أن يحملني من أذنيّ كما يحمل الأرانب فهذا ما لا أقبل به مطلقا!

مربّع الجحيم

أعيش منذ سنين في مخيّم على حافّة إحدى دول الجوار، أعُدّ الخيام كلّ يوم مرّتين، في الصّباح وفي المساء، وفي كلّ مرّة كنت أتمنى أن لا تزداد، ولكنّها تزداد كما يزداد الغبار على ظهورها يوما بعد يوم...

ما يدفعني إلى اليأس حقّا، هو تحوّل بعض الخيام إلى بيوتٍ من الصّفيح!

وما يمسح الأمل تمامًا من داخلي، هو تحوّل بيوت الصّفيح تلك إلى غرف صغيرة من الطّين!

إنها تثير سؤالا كبيرا في داخلي:

هل سنبقى طويلا هنا... !؟

الأيّام المتشابهة والمتكرّرة كلّ يوم؛ عقوبة أخرى يمكن إضافتها إلى قائمة العقوبات التي أفرزها العيش في المخيّم...!

يرسلني أبي كلّ صباح من أجل الوقوف في طابور الخبز!

وبعدها في طابور الماء!

وبعدها في طابور الإعانة الغذائيّة!

وبعدها في طابور العيادة من أجل أخي الصّغير!

ثمّ أعود إلى الجلوس في ظلّ الخيمة، أرسم على التّراب خارطة الوطن الذي ضاق بنا، وخارج حدوده أرسم مربّعا، ثمّ أصفّ الحصى داخله على أنّها الخيام.

أراقب أطفالا صغارا يخرجون من الخيام ، أعمارهم أقلّ بكثير من عمر المخيّم، وجوههم متّسخة ويحملون في أيديهم كِسر الخبز البائت!

أتساءل!

كيف ينجب الآباء في هذا المكان البائس؟

ولأيّ شيء ينجبون؟

أللوقوف في الطّوابير؟

أم للتسكّع حول الخيام ..!؟

بالأمس زفّوا عروسين جديدين، دخل العريس خيمته وكأنّه يدخل قصر برمنغهام!

عُدّوا معي تسعة أشهر فقط، وراقبوا الباب وقد خرج منه طفل صغير...!

(كَوْن لازم يعْمَر) ... كلمات أبي التي يبرّر بها كلّ نقاش، وكأنّها دليله الدّامغ، يقولها وهو ينفث الدّخان من فمه كقطار بخاريّ...

لا أجرؤ على مناقشته في دليله، ولكنّني أتساءل في نفسي، كيف سيعمر الكون؟!

بالخيام؟!

ولكنّني أراه يعمر بالخيام حقّا:

البيت خيمة

المدرسة خيمة

المرحاض خيمة

المستوصف خيمة

غرفة مطهّر الأولاد خيمة

محلّ كوافيرة العرائس خيمة

والوطن مخيّم!

والأهمّ من كلّ هذا، هو الشّريط الكهربائيّ الشّائك الذي يحيط بالمخيّم، ورجال الأمن الغلاظ الشّداد الذين يحرسون بوّابته الوحيدة بكلّ صرامة، ولا يسمحون لأحد بالمغادرة إلا إذا كان ميتا...!

آخر نقطة لتشييع الجنازة هي البوّابة، ثمّ يستلم الجنود الميت إلى المقبرة التي لا نعلم أين هي!

أنظر إلى أمّي التي تلقي الغسيل على حبال الخيمة، وتوصيني بحراسته لأن لصوصا يسرقون الملابس!

ثمّ تدور حول الخيمة لإبعاد علب الفول الفارغة، ولشدّ حبالها ووضع المزيد من الحجارة على محيطها لكي لا تطير إذا هبّت الرّياح العاصفة، كما طار بيتنا في الحرب!

أسمع أبي من الداخل يقول لعمي الذي جاء زائراً من الطّرف الجنوبيّ:

سيبنون مخيّماً جديداً بالقرب من هذا المخيّم!

ثم أسمع صوت القدّاحة يقدحها عدة مرات حتّى يشعل السّيجارة...

فيعصف بي التفكير مرة أخرى:

لقد صار الوطن خاليا من أهله، ولكنّه امتلأ بالغرباء الذي أتوا من كل حدب وصوب، يجمعهم حبهم لشرب الدّماء...!

أنظرُ إلى خريطة الوطن الضّائع، وأرسم مربّعا إلى جانب المربّع الأوّل، ثمّ أنهض لجمع المزيد من الحصى...

الدّراجة الحمراء

صغر سنّي لم يمنعني من إدراك كم كان أبي فقيرا...!

إنّه يذهب إلى الحقل منذ الصّباح الباكر ولا يعود إلا بعد أن يشتدّ حرّ الشّمس بعد الظّهيرة، ويعمل أيضا في حقول الآخرين، ليس لإطعام هذه الأفواه المفتوحة على الدّوام فحسب، بل ليتمكّن من شراء الأدوية المتزايدة لأختي الصّغيرة المريضة بالتهاب صمّامات القلب، هي بحاجة ماسّة لعمليّة استبدال الصّمامات (ستموت أختي لاحقا بفشل القلب)

لم أكن أطلب من أبي شيئا ممّا يطلبه الأولاد الصّغار من آبائهم، ألعاب، ثياب جديدة، درّاجة، حلويّات ...

بل كنت أتدبّر أمري، فقد وجدتُ مرّة علبة سردين صفراء فارغة، غسلتها، ثم جعلت منها سيّارة، وأحياناً قارباً يطفو على بركة الماء الصّغيرة التي تشرب منها الدّجاجات.

ولكنّ حلمي الوحيد الذي أرجو أن يتحقّق؛ هو أن أمتلك درّاجة صغيرة كتلك التي يركبها عزيز ابن الأستاذ نظمي.

أراقبه من بعيد يدور في السّاحة مزهّوا بدرّاجته الزّرقاء الجديدة المغلّفة بالنّايلون، يقف إلى جواري، فأتلمّس حديدها النّاعم اللّماع، أسأله أن أجرّبها إلى باب بيت الأرملة أمّ إبراهيم ثمّ أعود، فيرفض لأن أباه حذّره من ذلك!

ولأنّ الدرّاجة قد استحوذت على تفكيري، فقد صرتُ أراها في منامي ...!

كان هناك مارد يأتيني كلّ يوم في الحلم، فأقول له: أريد درّاجة حمراء، وكان – رحمه الله– يلبّي طلبي فوراً، ويضعها أمامي، حمراء جديدة!

أنزع النّايلون الذي يغلّفها وأمضي اللّيل ألعب بها، أذهب بها إلى خالتي في القرية المجاورة لأطلب منها ثوبها لتذهب به أمّي إلى عرس ابنة جارتها !

ثمّ أدور على رفاقي ليروا درّاجتي الجديدة، أصعد بها إلى التّلّة ثم أنحدر مسرعا كطير طائر إلى أن تتوقّف بنفسها!

أذهب إلى الدّكّان لأشتري طحينة بليرتين، وفي طريق العودة تسقط من يدي لأنّني تسابقت مع عزيز ابن الأستاذ نظمي، فتوبّخني أمّي وترسلني من جديد.

كنت سعيدا جدا بدرّاجة الأحلام هذه، فأمضي اللّيل أمتطيها من مكان إلى مكان، حتّى إنّني كنت أنهض من فراشي صباحا وقدماي تؤلماني من كثرة ما لهوت بها!

لا يمكن للحلم أن يصبح واقعا، مستحيل! هذا ما أنا مقتنع به، لذلك كان لابدّ من محاكاة الحلم...

وجدتُ على سطح دار قديمة بالجوار هيكل درّاجة صدئ بلا عجلات، ثبّته بالحجارة تحت شجرة التّين وصرت ألهو به، كنت أغمض عيني وأتخيّلها درّاجة الأحلام الحمراء.

يمر بي أبي، يمسح على رأسي، يدرك في داخله كم أحبّ الدرّاجات، كما أدرك في داخلي عجزه عن شراء واحدة لي! ولكنّه يمازحني فيقول:

لا تسرع بها كثيرا كي لا تؤذي نفسك...

وأنا أقول له:

أبي ... ضع ماء للدّجاجات بدلا منّي، فأنا ذاهب للمدينة وسأعود بعد قليل!

كنت أمضي اللّيل على الدرّاجة الحمراء الجديدة، والنّهار على ظهر هيكل الدرّاجة الصّدئ وأنا بكامل سعادتي.

ولكن لم أمتلك درّاجة حقيقيّة إلا بالأمس القريب، كانت سوداء قديمة كبيرة الحجم، كأنّها عجوز هرمة، دهنتها باللّون الأحمر، أصعد بها إلى التّلّة ثمّ أنحدر بها كالصاّروخ وأتركها لتتوقف بنفسها، أبحث عن عزيز ابن الأستاذ نظمي ليرى الدّراجة، فلا أجده لأنه هاجر إلى ألمانيا عبر البحر مع زوجته وأولاده.

فأتسابق مع ولدي الصّغير محمّد عندما نذهب إلى الدّكّان لشراء القليل من الطّحينة، تسقط الطّحينة من يدي، نصل البيت تقوم زوجتي بتوبيخ(ي) ولدي الصّغير محمّد، ثم نعود من جديد إلى الدّكّان!

إرث أجدادي

لطالما أخبرني أبي عن أبيه عن جدّه عن جدّ أبيه حول وجود كنز مدفون في مكان ما من حوش بيتنا، وأوصاني فيما لو وجدته أن آخذ حاجتي منه ثم أعيد دفنه للأجيال القادمة من أسرتنا...

كانت تعليمات أبي مستمرّة حول ضرورة إيجاده لأستفيد منه، فأبي الفقير لم يعثر عليه فيما يبدو لي، ولا بدّ من إيجاده حتّى لا يضيع حقّ جيل آخر فيه...

وعند بناء بيتي الصّغير في الحوش، كانت الظّروف مواتية للبحث عن الكنز، وكنت أمنّي النّفس بالوصول إليه، ولكن من غير فائدة...

ما تزال كلمات أبي منقوشة في ذاكرتي، وما يزال الأمل كبيرا في العثور على حصّتي من تركة أجدادي العظماء...

والبارحة، وبمناسبة ترميم بيتي بعد أن شهد حرب نهاية العالم، كنت أصرف بلباقةٍ كلّ من يأتي لمساعدتي من الأصدقاء والجيران حتّى أستأثر بالكنز من غير أن يعلم أحد بي...!

وبينما كنت أحفر أساسا لجدار العزل الذي يفصل بيني وبين العالم المحيط، ارتطم رأس الفأس بشيء معدنيّ!

هل يمكن أن يكون هو...؟!

أخرجت رأسي من الحفرة، ونظرت نظرةً بانوراميّةً إلى المحيط للتّأكّد من عدم وجود أحد قريب، ثم اختفيتُ داخل الحفرة !

لقد عثرتُ على صندوق حديديّ !

تماما في الجهة التي طالما أشار إليها أبي رحمه الله...!

أزلتُ التّراب من حوله بهدوء وتؤدة بالطّريقة نفسها التي يزيل فيها علماء الآثار التّراب عن التّماثيل الذّهبيّة المدفونة منذ آلاف السّنين...

كاد قلبي يتوقّف من شدّة الفرح! فجلست في الحفرة وبدأت أتأمل الصّندوق...

الغريب في الأمر أنّه كان بلا قفل!

ولماذا القفل مادام مدفونا تحت الأرض السّابعة؟!

بدأ قلبي يدقّ بسرعة وأنا أفتحه ببطء دراميّ كما يحصل في الأفلام !

كانت الصّدمة كبيرة إلى حدّ الفاجعة عندما رأيت في الصّندوق فقط زجاجةً محكمة الإغلاق، في داخلها لفافة من الورق، كتلك التي يجدونها على شواطئ البحار...

فقلت لنفسي معزّيا ومؤمّلا:

لابدّ وأن هذه الزّجاجة تحتوي على خريطة الكنز !

فتحتها وأخرجت اللّفافة الصّفراء منها وبدأت بنشرها على فخذي بهدوء حتّى لا تتكسّر ككسرة خبزة جافّة...

كانت الورقة بطول خمسين سنتمترا، وبعرض خمسة عشر سنتمترا تقريبًا...

مكتوب فيها بأقلام من الحبر الأسود والأزرق وبخطوط مختلفة، وكأنّه قد كتبها خمسة أشخاص...

بدأت القراءة وأنا مذهول:

النّصّ الأول كان مكتوبا بالحبر الأسود وبكلمات كبيرة...

النّصّ الثّاني كان مكتوبا بالحبر الأزرق وبخطّ جميل وواضح...

النّصّ الثّالث كان بالحبر الأزرق الغامق وبكثير من الأخطاء الإملائيّة...

النّصّ الرّابع كان بقلم الرّصاص وبخطّ صعب القراءة...

النّصّ الخامس كان بقلم الحبر الأزرق الجافّ ... وهو بخطّ أبي الذي أعرفه جيّدا...!

بينما كانت النّصوص السّابقة بخطوط أجدادي بدلالة توقيع كلّ واحد منهم في ذيل نصّه...

الذي زاد الغصّة في صدري هو محتوى النّصوص... إذ إن كلّ جدّ قد دوّن ما يشبه الوصيّة للجيل الذي يليه بوفاء ديونه التي عجز عن سدادها! حتّى جاء دور أبي الذي دوّن لي قائمة بأسماء الدّائنين، إلى جانب كلّ اسم مبلغ من المال المستحقّ...

تمنّيت لو يأتي أحد من الأصدقاء أو الجيران ليهيل علي التّراب وأنا في الحفرة...!

كيف تبدّدت كلّ أحلامي في لحظة واحدة... !؟

لملمتُ خيبتي وبدأت الكتابة في نهاية الورقة:

قائمة بالديون التي عليّ، مع رجاء سدادها من أولادي وأحفادي...

أعدتُ الورقة إلى داخل الزّجاجة، وأحكمت إغلاقها، ووضعتها في الصّندوق كما كانت، لتنام بسلام للأجيال القادمة...!

في صباح اليوم التّالي جلست أنا وولدي تحت الشّجرة، قلت له:

يا بنيّ، حدّثني أبي عن أبيه عن جدّه عن جدّ أبيه عن جدّ جدّه، أن هناك كنزا مدفونا في حوش بيتنا، ولعلّه تحت ذلك الجدار...

فإذا وجدته يا بنيّ، فخذ حاجتك منه، واترك الباقي للأجيال القادمة...

نار النّدم

على أبواب الشّتاء يقف أبي، وعلى أكتافه جبال من الهمّ، لقد سدّد بموسم الأرض ما ترتّب عليه من ديون، و اشترى بما زاد عن ذلك حطبا للتّدفئة، وصفيحة من زيت القطن، وأخرى من السّمن النّباتيّ...

أما الحاجيّات اليوميّة الأخرى فسنحصل عليها بالدّين، أو بما يمكن أن يجنيه من مال لقاء فلاحة الأراضي على الدّوابّ ...

يحصل هذا كلّ سنة، نعيش على الكفاف حتّى يحول علينا الحول!

منذ أيام مات بغل من بغال الفلاحة إثر نوبة مغص شديدة، ولم يعد لدينا إلا بغل واحد، يمكن أن نتجاوز به شتاء هذا العام ما لم يلحق بأخيه أيضًا.

بالأمس سمعتُ أمّي تطلب من أبي أن يشتري لنا شيئا من ملابس الشّتاء، إذ إن ملابسنا لم تعد صالحة حتّى لمسح الأرض!

سألها أبي إن كانت أختها قد أرسلت لها من ملابس أبنائها كما تفعل كلّ سنة؟

فكان جوابها لا...

ملابسنا لم تكن بالحسبان! هذا همّ مُضاف إلى هموم أبي اليوميّة...

نحن أسرة صغيرة، والدان وخمسة أطفال. أخي الكبير الذي من المفترض أن يكون في المرحلة الإعداديّة يعمل مع عمّي في معمل للصّابون في مدينة بعيدة بأجر بسيط بالكاد يغطي نفقاته وشراء طبق من الحلويّات يحمله إلينا في نهاية كلّ شهر!

لا أذكر أنّني أو أحدا من إخوتي لبس ثيابا جديدة، ولا حتّى في أيّام العيد، فالملابس تصل إلينا من أولاد خالتي بنصف عمرها، لتدور بيننا واحدا إثر واحد، حتّى إذا ما وصلت إلى أخي الصّغير ذي الخمس سنوات، كانت مليئة بالرّقع، وبخاصّة عند المرفقين وعند الرّكبتين!

في الحقيقة؛ أخي الصّغير هو الأكثر مظلوميّة بيننا، لأنّه في آخر سلسلة الاستفادة من الملابس، ومع ذلك كان يفرح كثيرا عندما تؤول إليه!

ذهابنا إلى المدرسة يفرض على أبي أن يشتري ملابس وأحذية جديدة لنا هذه السّنة، فقد أخبرنا عند المساء أنّه سيذهب صباحا إلى المدينة من أجل ذلك، فكادت قلوبنا تتوقّف من الفرح! حتى ونحن ممددون في الفراش، كان كلّ واحد منّا يتخيّل الملابس، ويشرح تخيّلاته للبقيّة...

وكان أخي الصغير أكثرنا فرحا وسعادة كعادته. في الصّباح بدأ بأخذ قياساتنا بالشّبر، وأخذ يدوّن على ورقة ما يقيس مع أرقام الأحذية، وعندما جاء دور أخي الصّغير الذي

كان يقفز فرِحا، تردّد أبي في أخذ قياسه لثوان معدودة، ثمّ أخذها ودوّنها، وبعدها غادر...

وعند الظّهيرة كنّا ندور حوله بسعادة عندما دخل إلى الدّار محمّلا بعدّة أكياس سوداء.

أفرغها على الأرض، وأعطى كلّ واحد منّا بنطالا وكنزة وحذاء من البلاستيك، ما عدا أخي الصّغير الذي سأله:

أبي؛ أين ملابسي؟

فردّ عليه بصعوبة ومن غير أن ينظر في عينيه:

بنيّ؛ أنت لن تذهب إلى المدرسة كإخوتك، سأشتري لك مثلها في العام القادم!

فما كان من أخي إلا انفجر باكيا واتّجه إلى خلف الدّار...

أمّا أبي؛ فغادرنا وعيونه تكاد تنفجر بالدّمع، وما عاد إلا في المساء، فوجدنا متحلّقين بوجوم حول المدفأة، وأخي الصّغير ما يزال يشهق بعد بكائه الطويل الذي توقّف للتّوّ، وقد أطرق رأسه مثبّتا نظره على ركبتيه العاريتين...

كان أبي عاجزا عن قول أيّ كلمة، فتوجّه من فوره إلى الفراش! مرّت عدّة أيّام وقد أفسد علينا أخي الصّغير فرحتنا بالملابس الجديدة، فهو يراقبنا كلّ يوم ونحن نرتديها

صباحا، ثمّ ونحن نخلعها عقب عودتنا من المدرسة، ثمّ ونحن نعلّقها بقداسة على المسامير المنتشرة على الجدران...

وعلى اعتبار أنّني أكبر منه بسنة ونصف؛ فقد طلب منّي غير مرّة أن يجرّب ملابسي عليه، لخمس دقائق، بل لدقيقتين فقط! ريثما ينظر إلى نفسه في المرآة...

ولكنّني كنت أرفض بشدّة بحجّة أنّها ستتّسخ...

في المساء، ونحن ممدّدون في الفراش قبيل النّوم، وافقتُ على طلبه بعد إلحاحه، ولكن بعد عودتي من المدرسة.

قال عِدني بذلك، فوعدته...

وفي الصّباح سألني:

هل مازلت عند وعدك؟

أجبته بنعم، فلوّح لي مبتسما وأنا أخرج من باب الدّار مع إخوتي...

في منتصف الدّرس دخل المدير علينا، همس في أذن الأستاذ بضع كلمات جعلت وجهه كقطعة شمع صفراء ثمّ غادر...

طلب منّي الأستاذ أن أذهب إلى البيت حالا...

وفي الطّريق قابلت أخويّ وعلى وجهيهما نفس إشارة الاستفهام التي على وجهي!

وعندما شارفنا على الوصول؛ رأينا من بعيد الكثير من الرّجال والنّساء أمام الدّار على غير العادة! ورأينا بقعة من الدّم على الطّريق... عندما دخلنا رأينا أخي الصّغير ممدّدا على الأرض ومخضّبا بدمه بعد أن دهسه جرّار مسرع، وأبي يحتضنه ويقول له باكيا:

قم يا محمود... قم...

سأبيع ثيابي وسأشتري لك ثيابا جديدة.!

(مقتبسة عن قصّة حقيقيّة)

طريد البؤس

لا أذكر شيئا من حياتي الماضية، كلّ ما أذكره هو شيء أشبه بالحلم ...!

أتذكّر حارتنا الفقيرة المنسيّة، وأتذكّر كيف يتبادل الرّجال لفافات الحشيش، وكيف تُشجّ الرّؤوس وتكسّر الأسنان والأيدي في العراك من أجل طير حمام...!

أبي يدخل البيت ثملا بعينين حمراوين، يضرب أمّي ضربا مبرّحا، وأنا أجلس في زاوية الغرفة كأرنب مذعور!

أمّي تغادر البيت مطلّقة، وأنا أحلّ محلّها في الضّرب والتّأنيب!

أعيش أنا والفئران في بيت أبي على كسر الخبز. وذات جوع، قرّرت الخروج للبحث عن شيء يؤكل، مشيت ومشيت من دون هدف!

أريد أن أصل إلى أبعد مسافة تفصلني عن أبي!

كان الجوع يفتك بمعدتي عندما مررت بمحلّ لبيع الفلافل، وقفت أمامه لنصف ساعة لعلّي أثير الشّفقة، ولكن بلا فائدة! قصدت الحاوية القريبة، أفتح تلك الأوراق التي تُلفّ بها السّندويتشات، فأجد بين طيّاتها لقمة خبز مع بقايا خسّ وطماطم وفلافل، طعمها لذيذ جدا، هذه المرّة الأولى التي أتذوّقها...

لقد شبعت، حقّا شبعت، بل وشربت (الكولا) أيضا من العلب المرميّة في الحاوية، لم أشعر بامتلاء المعدة منذ سنة، أي منذ طلاق أمّي!

غادرت الحاوية تاركا المجال للقطط التي ابتعدت للتّوّ...!

وجدت نفسي في سوق من الأسواق وقد حلّ الظّلام. ساقتني قدماي إلى زاوية فيها بعض القمامة، وجدت كرتونة كبيرة يمكن أن تتّسع لجسد طفل نحيل في الثّامنة من العمر.

كانت تفوح من الكرتونة رائحة الأحذية الجديدة، فشعرت بارتياح لأنّ بيتي هذا نظيف وجديد...

ها قد حِيزتْ لي الدّنيا، معدة ممتلئة، ومكان هانئ!

أغمضت عينيَّ وأسلمت نفسي للنّوم.

كانت ليلة هادئة لم أر فيها حلما واحدا، وكأنّني لم أنم منذ سنين!

صحوت صباحا، نظرت من داخل الكرتونة إلى العالم الخارجيّ كما تنظر الشّرنقة إلى عالمها الجديد، لم أر إلا أقدام المارة تثير الضّحك لكثرة تناقضاتها، فهي تسير في كلّ الاتّجاهات، أحذية جديدة لامعة، أحذية مهترئة، حفاة... شيء يبعث على الملل،

علي النهوض بعد هذه اللّيلة الطّويلة. عندما خرجت، شاهدت ثلاثة أطفال في مثل سنّي يخرجون أيضا من الكراتين الموزّعة من حولي!

إذن، في العالم بؤساء مثلي، فلست الوحيد...

شعرت لأوّل مرّة بنشاط وحيويّة، قصدت المرحاض العام، قضيت حاجتي وأنا أتأمل على جدرانه كتابات ورسومات كتلك النّقوش التّاريخيّة التي شاهدتها يوما على التّلفاز، والتي تركتها الحضارات القديمة على جدران المعابد.

لم أفهم الكتابات، ولكنّ الرّسومات تبعث على الخجل، هذا جعلني أستبعد أن تكون نقوشا ستترك كأنها آثار للأجيال القادمة...

غسلت وجهي ومسحت شعري ثمّ غادرت إلى الحاوية لتناول وجبة الإفطار!

قضيت بعض الوقت في الحديقة العامّة أتأمّل المارّة وأفكّر في الأيّام القادمة كيف ستكون!

ثمّ ذهبت لأتجوّل في الأزقّة كالكلاب الشّاردة أدقّق في الوجوه من بعيد، أخشى أن يكون أحدها لأبي، وكم تمنّيت أن أصادف أمّي...

في المساء، لم أجد شرنقتي، ولكن في سوق كهذا لا تنقطع الكراتين.

تفوح من هذه الكرتونة رائحة الفانيليا، لابدّ وأنّها كرتونة بسكويت...

لا أذكر آخر مرّة أكلت فيها بسكويتا، ولكنّني سآكل الكثير منه في أحلام هذه اللّيلة!

لقد نمت أيضا في كراتين الملابس الجديدة، وكراتين الحليب المجفّف، وكراتين الشوكولاتة، وكراتين الموز، وكراتين التبغ...

كان حولي عشر كراتين، يخرج من كلّ واحدة منها طفل، نفترق نهارا ونجتمع ليلا...

ثلاث سنوات مرّت على هذه الحال، لا أظنّ أنّ أبي قد تأثّر لغيابي، فقد ارتاح من شراء الخبز، وغالب الظّن أنّه يعتقد بوجودي عند أمّي الآن.

أمّي التي لا أعرف أين يكون بيت أهلها، ولو عرفت لذهبت إليها، أظنّها تزوّجت، فهي ما تزال صغيرة وجميلة...

أنا الآن داخل الكرتونة، أغالب النّعاس، كلّ الشّرنقات من حولي قد صمتتْ، وعلى عقلي أن يصمت أيضا حتّى أنام، فغدا بانتظاري فجر جديد وأزقّة جديدة!

لقد كان فجرا جديدا حقا، فعلى غير العادة، جاء عمال البلدية لجمع النفايات، يوقظون الأولاد، ويرمون الكراتين في براميلهم ذات العجلات!

قال لي العامل:

قم يا ولد، انهض، نريد الكرتونة، فتحت عينيّ!

كان وجه أبي!

آلام الذّاكرة

منذ انتهاء العام الدّراسيّ، اعتدتُ على أخذ خرافي إلى المدرسة حيث تشكَّلَ مستنقع صغير حول المغاسل من فائض خزّان المياه المثقوب، نَمَتْ فيه أعشاب خضراء غضّة تأكلها الأغنام بشهيّة.

إنّها مدرستي التي أمضيت فيها المرحلة الابتدائيّة منذ خمس وثلاثين سنة.

اليوم دخلتها مع الخراف من خلال جدارها المهدّم بقذيفة، فتفاجأت (بأبي خيرو) رحمه الله، آذن المدرسة في زماننا، يؤنّبني لدخولي من هنا، ويحثّني على الإسراع لأنّني تأخّرت عن الطّابور الصّباحيّ وتحيّة العلم!

أُصبتُ بالذّهول!

كيف هذا؟!

الرّجل ميّت منذ عقود، وأنا تجاوزت تلك المرحلة منذ زمن طويل!

لا أدري لماذا لبّيت طلبه من دون تردّد وأنا أحدّق به مندهشا!

هل أخبره بأنّه سيموت إثر حادث سيّارة وهو يقف على الطّريق الدّوليّة عندما كان يريد الذّهاب إلى المدينة؟

ركضتُ كما كنت أفعل لأدرك الطّابور الصّباحيّ ، وقفتُ في آخره أتأمّل رفاق الطّفولة...

كيف هذا؟

أنا كبرتُ وهم ما يزالون صغارا... !؟

أبسط راحتيّ لمدير المدرسة الصّارم ليضربني بالعصا بسبب تأخّري!

كيف أخافه وأنا الآن أكبر سنّا منه!؟

هل أقول له إنّه سيمرض بالفالج عندما سيبلغ الثّالثة والسّبعين؟ وإنّه سيموت بعدها بسنة؟!

نظرت إلى (رجب) ابن صفّنا الغبيّ، وإذ به يضحك عليّ بشماتة!

هل أخبره بأنّه لن يتجاوز المرحلة الابتدائيّة؟

وبأنّ أنفه سيبقى متّسخا حتّى يبلغ العشرين من العمر؟!

وبأنّه سيصبح سائق حافلة تعمل على خطّ دمشق حلب؟

جلستُ في المقعد الأخير، مقعدي المفضّل إلى جانب (فوزي عزّ الدّين) و(زهير أبو نكّاشة) ...

كان الفصل يموج بالفوضى قبيل دخول المعلّمة!

لا أحد يستغرب من وجودي بينهم كما أستغرب أنا!

تقترب (خدّوج) ذات العينين الزّرقاوين والجدائل اللّامعة المشدودة بإتقان، وقد لفّتهما على قمّة رأسها كالتّاج، ناولتني ممحاتي الضّائعة وعلى وجهها ابتسامة مشرقة كالشّمس...

هل أقول لها بأنّه لا فائدة من حبّنا...

وبأنّها ستتزوّج من (فوزي عزّ الدّين) الذي تكرهه، وبأنّ فوزي سيموت في الحرب!؟

تدخل معلمتنا (سمر) التي تأتي من المدينة، ما تزال بكامل أناقتها ورونق جمالها وشعرها المنساب على ظهرها وصدرها كشلّال من النّور!

يا الله، وكأنّ هذه السّنين قد تجاهَلَتْها فلم تحنِ لها ظهرا ولم تكسر لها سنّا!

تطلب منّي الوقوف لأسمّع أنشودة (فلسطين داري ودرب انتصاري) فأصدح بها كَرْجَا كجدول رقراق...

تعبث بشعري، تقبّلني، وتقول للجميع:

لرفيقكم هذا شأن في المستقبل.

هل أخبرها بأنّها ستنتقل إلى قرية أخرى بعد سنتين بسبب مضايقات المدير الشّبِق؟!

وبأنّ فلسطين وخلال خمسة وثلاثين عاما لم تزدد إلا بؤسا!

وبأنّني فشلتُ في المدرسة وأنا الآن مجرّد راعٍ بائس!

وبأن (قاسم) سيصبح مهندسا زراعيّا

و(آية) ستصبح طبيبة أسنان

و(شريف) سيصبح شرطيّا للمرور

و(إسماعيل) سيصبح لصّا يقضي جلّ عمره في السّجن!

و(محمود) سيهاجر إلى أوربّا بصورة غير شرعيّة، وستقوم الصّحفيّة بـ(شركلته) بقدمها ليقع على وجهه هو وابنته التي يحملها!

و(تماضر) ستصبح قابلة فاشلة

و(جميلة) التي لا تعرف الحروف حتّى الآن، ستصبح مدرّسة للّغة العربيّة!

و(زهير) الأبله سيصبح من وجهاء القرية بسبب ثروته الطّائلة!

هل أقول للجميع بأنّ الحرب ستهدم نصف المدرسة!؟

في الاستراحة ما بين الدّرسين لهوتُ مع التّلاميذ، لقد تعبتُ وهم يتدفّقون نشاطا...!

رأيت تلك الحجرة الصّغيرة المخصّصة للمستخدم (أبي خيرو) على باب المدرسة، والتي يبيع فيها حبّات السّكاكر الملونة، فقصدته لأشتري منها، وقفت في الطّابور الصّغير، وعندما جاء دوري أعطاني حفنة منها بعشرة قروش، مددت يدي إلى جيبي وإذا بها ورقة من فئة الألف ليرة، يعني ما يعادل مرتب أربعة أساتذة!

لم أجرؤ على إخراجها، وعندما لاحظ ارتباكي قال لي:

لم يعطك أبوك مصروف اليوم؟

لا بأس، غدا أحضر معك عشرة قروش!

ومع قرع جرس نهاية الدّوام، غادر الأولاد المدرسة صاخبين، وتوجهت إلى خرافي وقد امتلأت كروشها بالعشب...

خرجتُ بها من حيث دخلتُ...

وفي الطّريق وضعت في فمي قطعة حمراء من قطع السّكر الملوّنة...

وعندما وصلت البيت، بحثت عن العلبة الصغيرة التي أحفظ بها قطعا نقديّة قديمة، من بينها عشرة قروش، هي دين عليّ لأبي خيرو، يتوجّب عليّ سدادها...

لن أسهر هذه اللّيلة، إذ لا رغبة عندي في التأخّر عن الطّابور الصّباحيّ غدا...

فنّ التَّطبيع

كان انتقال أسرة (أبي نشوان) من المدينة إلى قريتنا نقلة نوعية سيّئة في حياتهم على كافّة المستويات، ولكن ماذا يفعل؟! فوظيفته شرطيّاً في مخفر القرية توجِب عليه ذلك.

شارباه الكبيران المعكوفان إلى أعلى يضفيان على وجهه مهابةً كبيرةً، ولكنّني سمعت أبي يقول ذات يوم :

عقل الرّجل يتناسب عكساً مع حجم شاربيه، لذلك لم أكن أهابه كما يهابه أولاد القرية، خاصّة عندما يخرج إلى عمله ببدلته (الخاكيّة) ومسدّسه على خصره. على كل حالٍ هو إنسانٌ غاية في الطّيبة والهدوء.

وأمّا زوجته، فما كانت راضية عن المعيشة في هذه القرية النّائية التي تنام باكرا وتستيقظ باكرا، فصياح الدِّيَكة وثغاء الأغنام يجعلانها تستيقظ مع بزوغ الشّمس، كما أنه ليس فيها سوقا لبيع الملابس أو الفاكهة أو الحلويات، ولكن ليس لها خيار!

كانت جميلة بيضاء نقيّة البشرة، يكاد الدّم يتفجّر من وجنتيها، يداها ناعمتان شفّافتان كأنهما من زجاج، تلبس ملاءة سوداء عندما تخرج من البيت، وفي داخله تلبس ثيابا

قصيرة تكشف عن ساقيها، كأنها تريد عبور النهر، وتطلق العنان لشعرها الخرنوبي كأنه شلالات من الضّياء.

لقد رأيتها بهذه الصورة عندما أرسلتني أمي ببعض البيض البلديّ لها، وعندما أخبرتها بذلك قالت لي: أنت لم تعد صالحا لمهمات كهذه.

المهم هي امرأة لطيفة، ولكنّها متكبِّرة على أهل القرية، وقد رفضت السُكنى في بيت طينيّ، ثم رضيت صاغرة لعدم وجود بديل.

في البداية كانت تمنع أولادها البيض من الاختلاط بنا لتبقى ثيابهم نظيفة أنيقة، وحتّى لا ننقل لهم القمل، أو نفسد عليهم دراستهم، أو نعلمهم عاداتنا السّيئة، كالأكل دون غسل الأيدي بالصّابون، والشّرب من التّرعة مع قطيع الغنم، واللّعب بالتّراب والسّباحة في النّهر...

ولكن لابدَّ من الذي ليس منه بدّ، أقصد لا يمكنهم أن يعيشوا منفصلين عن محيطهم هكذا طويلاً.

ورويداً رويداً تم اندماجهم وانصهارهم بنا، وصارت (أم نشوان) تزور جاراتها وتعلمهنَّ صناعة الحلوى، وكيف تهتم إحداهنَّ بنفسها، كأن تنسّق حاجبيها، وتزيل شعر وجهها

ب(السّكر المطبوخ) بدلاً من الملقط، وكيف تضع المكياج الذي جعل وجه (فوزية الضّبعان) الأسمر أبيضَ كالحليب، وثغرها الكبير الباهت كزهرة الرّمّان!

ورويداً رويداً أيضاً، بدأ القمل ينتقل من رؤوسنا إلى رؤوس أولادها، وأخذوا يشربون من التّرعة، ويلعبون بالطّين الأحمر على ضفّة النّهر، وقد تعلموا الكثير من الشّتائم.

بدأت (أم نشوان) تستيقظ باكرا، تشرب القهوة، وتراقب شروق الشّمس الشّاعري، هو منظر كانت محرومة منه في المدينة، ثمّ صارت تذهب مع جاراتها لقطف الخضار من الحقل، وقد علّمْنها الزراعة وحلابة الأبقار وسلق الحنطة وجرش البرغل...

وصار (أبو نشوان) يجلس مع الرّجال على الدّكّة أمام المسجد عقب صلاة العصر، يتباحثون حول أسعار الشّعير والخراف، ويشتم معهم الأولاد الذين يلعبون ويصيحون ويثيرون الغبار.

قال (أبو نشوان) للمختار الذي يجلس بجواره:

إنَّ من يشرب من ماء قريتكم يتعلّق بها فلا يغادرها، وسأبيع منزلي في المدينة وأشتري قطعة أرضٍ في القرية.

رحّب المختار به، واشترى له قطعة أرضٍ، بنى عليها بيتا طينيا جميلا، واشترى بقرة، وخمس شياه، وصارت (أم نشوان) تستيقظ باكرا، تعجن وتخبز وتحلب البقرة، تجمع

البيض، تزرع الخضار وتحصد الشّعير، وإلى جانبها زوجها الذي تقاعد من عمله، وأولادها الصّغار صاروا سُمرا مثلنا.

تضحك (أم نشوان) على قريباتها اللواتي يأتين من المدينة لزيارتهم، لأنّهنَّ يخفنَ من الدّجاجة ولا يعرفن كيف يحلبن البقرة...!

أمّا هنَّ فيمنعن أولادهنَّ من اللعب مع أولادها لكي لا يصابوا بالقمل، أو يتعلّموا بعض العادات السّيّئة، كالأكل من دون غسل الأيدي بالصّابون، والشّرب من التّرعة مع الأغنام، والسّباحة في النّهر!

أحلامٌ مؤجّلة

كم أكره الذّهاب إلى الطّبيب! فأنا لا أحبّ حُقنَ البنسلين العضليّة المؤلمة، إلا أنّني أفرح كثيرا عندما تلتهب لوزتاي!

لأنّ أبي سيأخذني إلى المدينة، حيث الطّبيب ووصفته الوحيدة: حقن البنسلين الحارقة، إذ كانت الدّواء السّحريّ الوحيد في ذلك الوقت.

نذهب إلى عيادة الدّكتور الشّهير (منير) وهو طبيب مسنّ وغير مختصّ، إلا أنّه يعالج كلّ أمراض القرويين القادمين من الأرياف التي تحيط بالمدينة.

نثق به كثير، ونُشفى من أمراضنا حتّى ولو وصف لنا الماء بدلا من الدّواء!

نظر في بلعومي وقال لأبي:

لابد من عملية استئصال اللّوزتين بعد شفاء الالتهاب!

بعد مغادرتنا عيادة الطّبيب الذي بات يعرف اسمي، نذهب إلى الصّيدليّة لشراء الدواء وأخذ الحقنة الأولى عند الصّيدلانيّ، أبكي قليلا، ثمّ أسكت خجلا لأن أبي يقول بصوت عال:

تبكي وأنت رجل...!؟

وكأنّ الرّجال لا يبكون! وقد رأيته بنفسي يبكي عدّة مرات من دون أن تكون هناك مناسبة وفاة لأحد من أقاربنا!

بعدها، نتوجّه إلى السّوق ليشتري أبي لوازم البيت:

برش الصّابون، خمسة أشبار من فتيل السّراج، مصلاة للفئران، صفيحة صغيرة من زيت القطن، نصف كيلو طحينة، كيلو حلاوة (شوشيّة).

ويعرّج على البسطة ليشتري لي أقراص جوز الهند البيضاء وأقراص السّمسم المحلاة بالسّكر، لأنّه يعرف كم أحبّها، ثمّ يذهب إلى صديقه الحاج (رفاعي) بائع الأدوات الزّراعيّة ليشتري عصا للمجرفة، ورسنا للحمار، وكالعادة، سيسلم عليه سلاما حارّا، وسيشرب معه كأسا من الشّاي، وسيتحدّثان عن تأخّر موسم الأمطار، وهذا ما أنتظره من كلّ رحلتي إلى المدينة!

فإلى جوار محلّ الحاج رفاعي يوجد مكان أظنّه جزءاً من الجنّة، أطلقتُ عليه محلَّ الأحلام، لأنّه يبيع ألعاب الأطفال!

عندما وقفت أمام واجهته الزّجاجيّة، شعرت بانفصالي عن العالم المحيط بي، فاختفتْ كلّ المحلات المجاورة، وغابتْ أصوات السّيّارات وأصوات الباعة، ونسيتُ مرضي

الذي جئت من أجله إلى المدينة، فلم يبق على وجه الأرض إلا أنا ومحلّ الألعاب الذي يعرض على الواجهة كلّ ما أحلم به:

جرارا زراعيّا بلون أحمر وإطارات سوداء، يجرّ خلفه محراثا أرزق، سيّارة شرطة سوداء وبيضاء مع أضواء ملوّنة على سقفها، قطارا ملوّنا يسير على سكّة دائريّة، درّاجة ناريّة يركبها سائق يرتدي خوذة، وقد حنى ظهره لأنّه يقود بسرعة عالية، شاحنة قلّاب خضراء، مكعّبات خشبيّة أظنّ أنّ بالإمكان صنع أشياء كثيرة منها، مجموعة من مجسّمات الحيوانات في كيس شفّاف أنيق! وغيرها الكثير الكثير!

تنعكس صورتي كاملة على واجهة المحلّ الزّجاجيّة، إنّها مناسبة لأرى صورتي كاملة، إذ لا نملك في البيت إلا مرآة دائريّة صغيرة، أهرع إليها لأنظر إلى ثنيّتيّ الكبيرتين كلّما قال أخي ساخرا:

أسنانك كبيرة كأسنان الحمار!

أعرف صورة وجهي، ولكنّني للمرّة الأولى أرى صورتي كاملة!

رأيت نفسي في سنتي الثّامنة، أرتدي قبّعة جلديّة سوداء مبطّنة بالفرو، لها أطراف طويلة تدلّت على خدّيّ كآذان الماعز، وألبس معطفا رماديّا فضفاضا بأكمام طويلة، أطول من ذراعيّ بقليل، أمّا حذائي المصنوع من الكاوتشوك، فقد كان أكبر من مقاس

قدمي بنمرتين، ولكنّ أمّي شدّت خيوطه جيّدا، فأمسك بقدميّ بقوّة، في الحقيقة إنّه حذاء أخي الذي يكبرني بسنتين!

أصحو من حلمي عندما يناولني أبي بعض الأشياء الخفيفة لأحملها إلى الكراج غير البعيد حيث سنعود إلى القرية.

وفور وصولنا، أجمعُ رفاق الحارة، وأتحدّث إليهم عن جوز الهند المحلّى كم هو لذيذ!

وأصف الواجهة الزّجاجيّة لمحلّ الألعاب وما تحتويه من أحلام وأمانيّ.

ظلّ المحلّ في ذاكرتي لا يغيب، أحفظ ما تحتويه واجهته عن ظهر قلب.

عندما استلمت أول راتب من وظيفتي، ذهبتُ إليه لأشتري كل ما هو معروض على الواجهة، كنت بمفردي لأنّ أبي قد مات منذ زمن! ولكنّني لم أجد المحلّ، ولم أجد محلّ الحاج رفاعي أيضا، فقد قامت في المكان عمارة عالية، في دورها الأرضيّ يوجد معرض فخم للسّيّارت الحديثة.

وقفتُ أمام واجهته الزّجاجيّة الكبيرة، تأمّلت صورتي المنعكسة على الزّجاج، كانت ملابسي أنيقة على مقاسي تماما، ثنيّتاي جميلتان بلون لؤلؤيّ، أطول من الرّباعيتين بقليل، هكذا رأيت نفسي وأنا أبتسم متأمّلا السّيّارات الفارهة، وقد دخلتُ في حلم جديد!

ميلاد مجهول

لا أعرف في أي سنة ولِدتُ بالتّحديد، ففي ذلك الوقت كان الآباء يسجّلون أولادهم في دائرة النّفوس عندما يصلون إلى الطّول المناسب للدّخول إلى المدرسة.

حينها يتوجّب عليهم تسجيل الأولاد في النّفوس ثمّ في المدرسة، عسى أن يتعلّموا القراءة والكتابة، فتنفعهم في حياتهم.

لم أكن أهتمّ بتفاصيل ولادتي، إلى أن طلب منّي مدير العمل فتح سجلّ لولادة النّعاج في حظيرته الحديثة:

ساعة الولادة وتاريخها، جنس المولود ذكر أم أنثى، الوزن عند الولادة...

ما أعرفه، أنّني ولدتُ في منتصف ليل شتويّ بارد، حيث كان ارتفاع الثلج بارتفاع نبتة قطن!

كلّ الدايات اللاتي ساعدن أمّي في خروجي إلى الحياة قد مِتْن، آخرهنّ كانت قريبة لأبي، كلّما رأتني تطلب منّي خدمة لأنّها أرملة وحيدة، تقول لي:

أنا جدّتك، أنا أوّل من رأى وجهك الأزرَق وأنت مدين لي بحياتك، فلو لم أنفخ في فمك لمتّ في حينها، كانت ولادتك متعسّرة جدا، اجتمعنا ثلاث دايات لإخراج

رأسك الكبير، إحداهنّ –لغضبها– صفعتك على وجهك فور خروجك وقد كانت تلهث وتتصبّب عرقا، وأمك أوشكت على الهلاك، والله أنقذها!

ثمّ تخرِج من جيبها موسا صدِئا وتقول:

بهذا قطعتُ حبلك السّرّيّ!

سألتها: جدّتي؛ في أيّ عام كان ذلك؟

قالت: لا أعرف، ولكنّك ولدتَ في نفس السّنة التي اندلعت فيها الحرب!

فبدأتُ أسأل، هل حقا كانت ولادتي صعبة؟! وهل شارفتْ أمّي على الهلاك خلال وضعي!؟

سألتُ أبي، فأخرج كيس التّبغ وأخذ يلفّ لفافة منه، بلّل طرف الورقة بلسانه، أكمل لفّها، أشعلها، أخذ منها نفسا عميقا، ثمّ زفره كقطار بخاري!

نظر في الأفق وكأنّه يتذكر تفاصيل تلك اللّيلة ثمّ قال:

كانت ليلة سوداء تلك التي جئتَ فيها، حتّى إنّني صرتُ أفكّر في حفر قبرٍ لأمّك، كان البرد شديدا، الرّياح تصفر، والذّئاب تعوي من بعيد، وأنا أتنفّس من ثقب إبرة!

سألته إن كان يذكر في أي عام كان ذلك؟

قال: لا أذكر، ولكنّك ولدتَ في نفس السّنة التي هاجم فيها الجراد الحقول!

سألتُ جدّتي أمّ أمّي التي تسكن في قرية بعيدة، قالت:

ما علمتُ بولادتك إلا عندما توقّف الثّلج بعد أسبوع، ولكن عندما رأيت أمك عرفت من وجهها أنّها شارفت على الهلاك بسببك!

سألتُها في أيّ سنة كان ذلك يا جدّتي؟

قالت في نفس السّنة التي ماتت كلّ دجاجاتي فيها بالطّاعون!

البارحة كانت أمّي تجلس على الدّكّة التّرابيّة تدفّئ جسدها النّحيل بأشعّة الشّمس، وتضع خدّها على ظاهر يدها التي أمسكت بعكّازتها.

قبّلتُ يدها، ثمّ سألتها:

أمّي، هل حقّا كانت ولادتي صعبة عسيرة؟

قالت: لا لا ... أبدا، كانت أسهل من شربة الماء، يومها توقّف الثّلج، وظهرت الشّمس بعد طول غياب...

سألتها في أيّ سنة كان ذلك؟

قالت:

في السّنة التي توقّفتْ فيها الحرب، وأعطتْ الأرض أفضل مواسمها، كان وجهك فأل خير علينا، في تلك السّنة تركْنا غرفة الصّفيح بعدما تمكّن أبوك من بناء هذين البيتين من اللّبن، وأنجبتْ شاتنا توءما. ثمّ دارت بوجهها إلى الجهة الأخرى حتّى لا أرى ما في عينيها!

الآن فقط تأكدتُ أن ولادتي كانت صعبة، وأنّ أمي شارفت على الهلاك بسببي، وأنّه في تلك السّنة قد اندلعت الحرب، وأن الجراد أتى على الحقول، وأن دجاجات جدّتي قد ماتت بالطّاعون، وليس من الضّروري بعد الآن أن أعرف في أيّ عام كان كل ذلك!

جراء العشوائيّات

لا يمكن أن أنسى أنّني – كآلاف الجراء– من مواليد حيّ العشوائيّات الذي يحيط بالمدينة ويتمدّد كسرطان الجلد، حيث الكثير من الكلاب الضّالة التي تمشّط الطّرقات ليلا وهي تنبح، وحيث القطط المتّسخة التي تقضي كلّ وقتها نهارا وهي تعبث بأكوام القمامة في الزّوايا والأماكن الجانبيّة.

لا شيء يميّز البشر عن الحيوانات هنا، سوى أنّهم يمشون على ساقين، فالجريمة منتشرة، والمخدِّرات والخمور، وكأنّ هذه البقعة الجحيميّة ينقصها ذلك حتى يكتمل البلاء!

الجدّات بوجوههن الصارمة يجلسن على الأبواب يدخّنّ أردأ أنواع التّبغ، والأطفال الصّغار يركضون بلا سراويل، والنّساء قليلات الوفاء ينشرْنَ ملابسهنّ الدّاخليّة بألوانها الزّاهية على حبال الغسيل حتّى يراها الجميع!

والكبار العاطلون عن العمل لا يتوقّفون عن الشّتم، ويتلفّظون بألفاظ جنسيّة أمام الأطفال والنّساء من دون حرج! مازلتُ أذكر عندما جاؤوا بأبي –عامل البناء– الذي سقط داخل غرفة المصعد في البناء قيد الإنجاز، جاؤوا به جثّة هامدة ممزّقة، أدركتُ

منذ تلك اللّحظة أنّنا انتهينا كأسرة، خاصة بعدما تزوّجت أمي بعد وفاته بستّة أشهر، وتركتني أنا وأختي كقطط صغيرة ماتت أمّها قبل الفطام.

تركتنا هكذا كأوراق الشّجر المتساقط، يدوسها العابرون بلا اكتراث!

احتضننا عمي الذي لا يصحو رأسه من السُّكْر، وزوجته القويّة التي لا تكفّ عن شتمه وشتم حظّها، وشتم البلاء الذي حلّ ببيتها، وتقصدني أنا وأختي...!

تطعمنا كلّ يوم صباحا المقدار الذي يبقينا على قيد الحياة، ثم تطردنا من البيت على مرأى من عمّي الذي لا يحرّك ساكنا، فنذهب إلى المدينة لنتسوّل.

تُفرغ جيوبنا آخر النّهار، لتشتري لنفسها دخانا فاخرا بنكهة النّعناع، ودخانا وطنيّا رديئا لعمّي، وتشتري بما يزيد (علفا) لنا كما تقول.

مئات الأطفال مثلنا، يخرجون صباحا للتّسول، كنت أخجل كثيرا في البداية، فأقف في السّوق أنا وأختي الصّغيرة التي لا تعرف ماذا نفعل، ولا لماذا نحن هنا في هذا البرد!

أحمل بيدي صندوقا صغيرا من الكرتون، فيمرّ النّهار من دون محصول يذكر، إلى أن ضربتني زوجة عمّي وقالت لا تقف في السّوق كالحجر...!

التصق بالمارّة كذبابة عنيدة، قبّل أيديهم، ادع لهم بالخير وطول العمر، وأن يحفظ الله ذريتهم، اجرِ خلفهم، لا تتركهم من دون أن تأخذ شيئا.

كنّا نحصل على المال من أصحاب القلوب الرّقيقة، وكنّا كذلك نتلقى الكثير من الشّتائم والصّفعات والرّكلات من أصحاب القلوب القاسية!

وفي يوم من أيّام الشّتاء الباردة، كانت الحركة في السّوق قليلة، لم نحصل على الكثير من المال ، لكنّنا حصلنا على ما هو أهم، فقد كنا نرتجف من البرد عندما اتّجه نحونا رجل في الخامسة والأربعين من العمر، جميل الوجه، بياض شعره أكثر من سواده سلم علينا، سألَنا أسئلة عن حياتنا، أخذ الصندوق من يدي وألقاه جانبا، جرّني بيده اليسرى، وجرّ أختي بيده اليمنى ومشى في المنتصف وقد أدرنا ظهورنا إلى الحيّ العشوائيّ، وما يزال يجرّنا بيديه حتّى هذه اللّحظة، على الرّغم من أنّه في الثمانين من العمر.

أنا الآن أستاذ في إحدى الجامعات المرموقة، وأختي تدرِّس في معهد للّغات القديمة...

نخرج كلّ يوم تقريبا إلى السّوق، نبحث عن أولاد صغار يتسوّلون، لنجرّهم من أيديهم...

مهنة حرّة

لأبي غايات كثيرة عندما كان يأخذني في كلّ عطلة صيفيّة إلى محلّ من محلات البيع، لأعمل صانعا من دون أجر.

كان يريدني أن أدخل مدرسة الحياة في وقت مبكّر، وأن أتعلم مهارتها، وأن آخذ فكرة عن كلّ مهنة.

ربما كان يقصد ملء فراغي بشيء مفيد، أو تهذيبي بقتل كلّ بذور الغرور التي قد تنبت في داخلي يوما ما، أو أنه كان يريد أن أتعلّم مهنة أعتاش منها فيما لو فشلت في المدرسة، والأهم، أنّه كان يريد أن يمرّر لي رسالة عمليّة مفادها:

عليك بالعلم، لتحصل على شهادة تجعل حياتك مريحة.

أول مهنة دخلتها كانت في العطلة الصّيفيّة بعد الصّف الرابع في محل بائع الخضار والفاكهة، كانت مهمّتي تنظيف المحل وإيصال الطّلبات إلى البيوت في الحارة والحارات المجاورة. رأيت بائع الخضار ينزع قطعة معدنيّة من جوف أوزان الميزان ليبخس النّاس حقّهم، أخبرت أبي بما شاهدت، فقال إنّ ما شاهدته حرام ولا يجوز، لذلك عليك ترك العمل عند هذا الرّجل!

استأذنته أن أذهب فقط لمرّة أخيرة، وفي اليوم التّالي، اخترت حبّة خيار غضّة طازجة، نديّة بهيّة، دهنتها بقطعة من الفلفل الأحمر الحارّ الحارق وقدّمتها له، وما أن أخذ منها قضمة حتى خرج الدّخان الأبيض من أذنيه، عندها أطلقت العنان لقدمي بلا عودة!

نقلني بعدها إلى دكّان الجزّار، ومهمّتي كالعادة التّنظيف وإيصال الطّلبات واكتساب الخبرة.

كان للجزّار زوجتان، أمّ أولاده العلنيّة، وأخرى سرّيّة في حارة بعيدة، كان يرسلني باللّحم الرّديء إلى زوجته القديمة، وباللّحم الممتاز إلى الجديدة، ويهدّدني في حال إفشاء سره – وهو يشحذ السّكّين– بقطع لساني!

زوجته القديمة امرأة بدينة سمراء الوجه خشنة الملامح، تأخذ كيس اللّحم من يدي، وتغلق الباب بعنف من دون كلمة شكر، كأنّها ترسل شتيمة كبيرة لي ولمعلمي!

أمّا الجديدة فتفتح الباب بهدوء، تمدّ يدها من خلاله، تأخذ الكيس وتقول:

سلم الله يديك...

لم أرَ وجهها، ولكنّني أعتقد جازما أنّها في غاية الجمال، فثوبها الأسود يزيد من بياض يدها الحريريّة النّاعمة، أصابعها رفيعة متناسقة كأصابع البيانو، وأظافرها مطليّة بلون حبّات العنب، يزيد جمالها ما تحمله من خواتم وأساور ذهبيّة!

كان تناغم الألوان في يدها مدهشا للغاية، جعل من يدها حديقة غنّاء تطير منها العصافير!

عندما وصفتُ ما رأيت لأمّي، سمعتها تقول لأبي، لقد صار الولد رجلا ولا ينبغي له أن يعمل في إيصال الطّلبات إلى البيوت...

فجرّني أبي في اليوم التّالي إلى المعلّم عبد الهادي المقرمش (ميكنسيان) السّيارات السّياحيّة في المنطقة الصّناعيّة، وهو بعمر والدي، أبويّ الملامح، تعلّمت منه الصّدق والإخلاص بالعمل.

يمنعنا من الاختلاط بالأولاد العاملين في المحلات المجاورة، لأنّ أكثر أصحاب المحلات سيّئي الخلق، وفي نهاية اليوم يفتّش وجوهنا وأظافرنا إن كان قد علق فيها شيء من الشّحم والزّيت والأوساخ، ثمّ يعطي كل ولد أجر طريق العودة مع مبلغ بسيط لشراء قطعة حلوى، ويوم الخميس، يعطينا مبلغا جيدا ويقول اشتروا شيئا حلوا لأهلكم.

كان يقْبَل الأولاد للعمل في الصّيف، ثمّ يأمرهم بالذّهاب إلى المدرسة في موسم الدّراسة. المعلم عبد الهادي، هو الوحيد الذي عملت عنده بكل سعادة ومحبّة للعمل، حتّى عندما صرتُ معلّما في المهنة، أمرني بافتتاح محلّ جديد لي...

لم انقطع عنه يوما، فقبل أن أدخل محلّي صباحا أعرّج عليه، أقبّل يده، ويدعو لي بالبركة ويوصيني بالصّدق والأمانة والإخلاص في العمل.

وفي آخر النّهار، أفتّش وجوه وأظافر الأولاد الذين يعملون صنّاعا عندي، أعطيهم أجر طريق العودة مع مبلغ بسيط لشراء قطعة حلوى، ثمّ أعرّج ثانية إلى محلّ المعلّم عبد الهادي لأدعوه لتناول طعام العشاء، فزوجتي قد اشتاقت لأبيها، وأولادي قد اشتاقوا لجدّهم.

عندما يزحف الموت!

الشّمس الحارقة تزيد من وطأة الجفاف، والرّياح العاصفة تكنس أزقّة القرية، فتثير الغبار الذي يضرب الأبواب والجدران بإصرار، باحثا عن كائن حيّ ليقول له:

عليك الرّحيل...!

سبع سنوات مرت من دون مطر...

النّهر الذي يمرّ في القرية من جهتها الشّرقيّة، ويتّسع ليشكّل بحيرة صغيرة تسبح فيها الجواميس، قد جفّ، وماتت نباتات الحلفا والقصب التي كانت تنمو على أطراف البحيرة، ونبتت في قاعه نباتات متقزّمة عطشى تحمل بضع وريقات خضراء، وفي قمّتها زهرة متجعّدة لا تغري أيّ حشرة بالاقتراب منها.

العصافير التي كنّا نبني لها الفزّاعات لإبعادها عن حقول الذّرة، لم تعد موجودة هي الأخرى، حتّى الطّيور المهاجرة التي كانت تهبط في البحيرة للشّرب والاستراحة، صارت تدور في سماء القرية دورتين ثمّ تمضي باتّجاه الشّمال.

لا شيء أخضر! وكأنّ الصّحراء أفعى أناكوندا تبتلع الحياة وضجيجها، لتتغوّط رمالا ونباتات صحراويّة جافّة كأثداء كلبة عجوز.

وفي اللّيل تسمع للأبواب والشّبابيك أنينا، كسيمفونية حزينة تخرج من جوف بئر!

صارت العقارب، مرفوعة الذّنب شاهرة سلاحها على الدّوام، تتجوّل في الأزقّة الرّملية باحثة عن ضحيّة فيها ثمالة من عصارة الحياة.

والسّحالي الصّفراء الرّشيقة باتت تشاهد بكثرة، تخرج من جدران البيوت المهجورة المتصدّعة!

سألتُ مرّة آخر عجوز ترك القرية إلى القبر:

لماذا تتشقّق جدران البيوت المهجورة؟

أجاب:

إنّ البيوت حيّة بأهلها، وعند هجرها تجفّ وتتصدّع حزنا عليهم...!

وحده الذي ما يزال محافظا على زياراته من دون تغيير، ذلك القطار البخاريّ الهرم الصّدئ، الذي نقل جنود الحرب العالميّة الأولى ذات يوم.

صحيح أنّه غيّر بعض عاداته، فلم يعد يطلق صافرته من بعيد، إذ لم يعد هناك أطفال يلعبون بالقرب من سكّته، ولا قطعان ترعى الأعشاب بين قضبانها الفولاذيّة، فصار يمر مرورا سريعا من دون التفات، ولكنّه يشعرنا بأنّ ثمّة حياة هناك في مكان ما...

لا أحد يعرف لماذا زحف الموت إلى القرية؟

لماذا تحوّلت من جنّة خضراء إلى بقعة صحراء؟!

فأستاذ المدرسة قال:

إنّ السّبب هو ثقب الأوزون، والتغيّر المناخيّ الذي يشمل العالم كله، وإنّنا نساهم في اتساع هذا الثّقب عندما نجمّع روث الأبقار في كومة واحدة، أو عندما يضع الحلاق بعض الكولونيا للزّبون، أو حتّى عندما تتبرّج النّساء في الأعراس!

شيخ القرية كان له رأي مخالف:

قال إنّ السّبب يكمن في ذنوبنا ومعاصينا، وإنّنا كقوم ثمود الذين عقروا النّاقة، وعلينا أن نشكر الله لأنّه لا يمطر علينا حجارة من السّماء... !

الله ليس جلادا، ردّ عليه أحد الرّجال بصوت خافت...!

كلّ هذه التّفاسير لم تعد تعنينا نحن الكهول، بالأمس دفنتُ آخر عجوز ممن لم يغادروا القرية، ولا أعرف من سيدفنني عندما أموت!

كان دفنه في غاية الصّعوبة إذ أنّ الأمطار ما تزال تهطل منذ أسبوعين ليلا ونهارا بلا توقّف، وقد تهدّم كثير من البيوت الطّينية لأنّها شربت الكثير من الماء...!

أمّا النّهر فقد فاض، والبحيرة صارت كبحر صغير، العقارب اختفتْ، والأشجار اخضرّت، والصّحراء تراجعت كجيش منهزم !

لن أخشى الموت بعد الآن، لأن أهل القرية سيتولّون دفني!

ترى، متى سيعودون؟

من سيخبرهم بأنّ ثقب الأوزون قد انرتق، وبأنّ الله قد رضي عنّا؟!

الصّندوق الأبيض

حالته النّفسيّة الخاصّة، وفارق العمر الكبير بيني وبين الأستاذ (شوقي)، يجعلاني أقف عند حدّ معيّن في التّعامل معه.

منذ تفتّحت عيناي على الدّنيا وهو على هذه الصورة لم يتغير!

ساد اعتقادٌ في الحارة أنه مجنون، وأنَّ جنّا يتلبّسه، لذلك لا يقترب منه أحد.

غامض كصندوق أسود، يعيش وحيدا في منزله المتواضع جدا المكوّن من غرفة قديمة وملحقاتها.

كانت ترسلني أمي يوميّا بصحن طعام ورغيفين من الخبز، ويوصيني أبي ألا أزعجه، بل أن أخدمه وألبّي طلباته، لأنه مسنٌّ ومقطوع من شجرة كما يقول.

أدخل غرفته فأشمُّ مزيجا من الرّوائح العتيقة:

دخان سجائر، رائحة كتب وورق، رائحة خشبية، عِطر قديم، عفونة قادمة من البعيد...

أراه منهمكا دوما في القراءة والكتابة والتّفكير، أسلِّم عليه فلا يرد، يشير بيده أن أضع الطّعام أرضا وأن أنصرف، فلا أنصرف، بل أصنع له شايا، فيُسرُّ بذلك دون أن يُظهر على وجهه أيّ تعبير!

فرصتي الوحيدة لتأمّل عناوين مئات الكتب التي حوله، هي الآن، بينما يتناول الطّعام:

كتبٌ فلسفيّة، أدبيّة، دينيّة، تاريخيّة، نقد، روايات من الأدب العالمي، كتب باللغة الإنكليزيّة، الكثير الكثير من المخطوطات التي يمنعني من تصفحها. يقول لي بحزم: ستعرف كل شيء بعد أن أموت!

بين الكتب صورته عندما كان شابا، لا أملُّ من النّظر إليها، ومقارنتها به الآن.

يعطيني نقودا لأشتري له دخانا، فهو لا يخرج من بيته إلا للضّرورة، زارنا مرة واحدة فقط، عندما نجحتُ في الثّانويّة، يومها قبّلني وقال لي مبروك، جلس صامتا قليلا، ثم غادر...!

ولأنني لا أجرؤ على سؤاله عن دراسته، ولا عن حياته، سألت أبي، ولكنّه لا يملك الكثير من المعلومات حوله، هو الأستاذ (شوقي) الذي يعيش وحيدا، فقط، هذا كلّ شيء!

أبي يدافع عنه، ولكنّه لا يستطيع أن ينكر أنّه غريب الأطوار، نسمعه يغنّي ليلا بصوت عال شجيّ لأم كلثوم (القلب يعشق كل جميل)، ولصباح فخري (أنا في سُكرين من خمرٍ وعَيْن، واحتراقٍ بلهيبِ الشّفتين)، ولأديب الدايخ (يا حلوةً بين الجفونِ تنامُ)، وتارة يردد أشعار (ابن الفارض) المغرقة بالصوفيّة الفلسفيّة، وأحيانا يؤذّن، وبعدها يغنّي (افتح يا سمسم أبوابك نحن الأطفال)، وكثيرا ما نسمعه يعزف على (النّاي) تقاسيم من مقام الصَّبا، تذيب القلب لفرط حزنها!

انتقل للعيش في دار المسنّين عندما أحسَّ ببدء تدهور صحّته، لم أقطع زياراتي له مطلقا، خصوصا عندما شعرت بسروره لرؤيتي، صار أكثر لينا، يسألني عن أبي الذي تأخّر في زيارته هذا الأسبوع، ويطلب منه أن يزوّجني باكرا في كل زيارة.

البارحة كنت أبكي عند رأسه عندما فاضت روحه، وبناء على طلبه، أعطاني مدير دار المسنّين مفتاح بيته، وظرفا مغلقا فيه وصيته الموجزة:

لا أملك في هذه الحياة شيئا، سوى بيتي وكتبي ومخطوطاتي، الكتب والمخطوطات لك...

اجعل مكان بيتي حديقة صغيرة تضم شجرة وكرسيّا تحتها وأرجوحة للأطفال.

وجدتُ بين أوراقه أربع شهادات جامعيّة باسمه، وأمضيتُ سنة كاملة أقرأ مخطوطاته.

كان مفكِّرا، فيلسوفا، أديبا، شاعرا، ناقدا، مترجما!

كتب لي على غلاف مذكّراته:

"هذا أنا، صندوق أبيض."

الفرح الغائب

منذ ثماني سنوات لم يُسمع صوت طبل في القرية. موسم الأعراس عندنا في الصيف، بعد جمع المواسم من الأرض، سلسلة من الأعراس لا تنتهي إلا بقدوم الشتاء.

تقام الأعراس هناك حول شجرة الكينا الهرمة التي تقف وسط الساحة وتظللها كأم حنون، أغصانها ملجأ للعصافير، وجذعها موئل للعاشقين، وظلها مستراح للمتعبين.

يحي الأعراس فرقة موسيقيّة من القرية المجاورة بقيادة عازف المزمار أبي خضر، وهو (قرباطي) أعرج شديد السمرة، أسنانه مفضضة وعيناه صفراوان من كثرة ما يدخن.

يرافق أبا خضر ابن أخيه (بْشِيش) ضارب الطبل، وهو شابٌ قصير القامة، عريض الكتفين، بارعٌ جداً في ضرب الطبل، يقال أن أهله القرباط حمّلوه الطبل وهو صغير قبل أن تقسو عظامه فظل قصيراً.

أبو خضر وبشيش منسجمان غاية الانسجام، كأنّهما عازف واحد! يعزفان لكبار السن معزوفة (سكابا يا دموع العين سكابا) وللشباب معزوفة (مجاريح) فيشتعل الحماس ويهبّ الجميع للدبكة... على الأول يدبك الشّباب فيقفزون كالقرود، وفي المؤخّرة يدبك الأطفال أو أمّ العريس التي تلوح بمنديلها الملون، وأحياناً المهبول (كاظوظة) بنظارته المثبتة على وجهه بمطاطة...

العرس سوقٌ تبحث فيه الأمهات عن العرائس، وما أكثر (العجيات) وما أجملهن!

نجمة هذا العرس (رضيّة) بنت أبي زهدي الزاحط، إنها في الخامسة عشرة، آية من آيات الله في الحُسن، طويلة ممتلئة كوسادة حريرية، عيناها عسليتان تلمعان في وجهها كحجرين كريمين، ورثت من أبيها الطول الفارع، ومن أمها الأجفان الطويلة المقلوبة، ثنيّتها مكسورة من زاويتها.

أحيانا يكون الجمال في عدم الكمال!

رضيّة ثقيلة كما أوصتها أمها، تسلّم على النّساء بحياءٍ ولطف ثقيل، تبتسم ابتسامة ساحرة، النّساء يتأملنها بإعجاب، لا تخشى عليها أمّها من عيونهنّ، فقد دسّت في صدرها تعويذةً للعين!

العرس التالي كان لرضيّة، فقد فاز بها (شحّود ضدّ المَيّ).

ثماني سنوات مثقلة بالحرب قد مضت، وأصابع أبي خضر التي كانت تلامس ثقوب المزمار برشاقة قد تيبّست من قلة الاستعمال، وطبل (بشيش) ترقد فيه الدجاجة بعد أن نزع وجهه الجلدي وملأ نصفه بالتبن!

البيوت حول السّاحة صارت خرائب بسبب القصف!

وحيدة شجرة الكينا الكهلة قد ملّت الانتظار!

ولكنّها ما تزال واقفة في مكانها تترقّب أبا خضر وبشيش وعرسا آخر...

عبير الذّكريات

لم أكن أرغب في لبس الحذاء، ولا في ارتداء البنطال ذي السّحّاب، ولا في قصّ شعري، فضلاً عن تسريحه، وأظنُّ أن رأي (عبير) كرأيي.

كنتُ أتمنى لو أقضي كل عمري هكذا...

أخرج صباحاً مع غنماتنا السّبع العجاف إلى المرعى شرقيّ القرية، حافياً، ببنطالي (المطيط)، بيدي عصاً بطولي، ثمّ أعود مساءً أسيرُ أمام القطيع ممتلئ الكروش كملكٍ مظفّر...

كانت تذهب معي إلى المرعى تلك الفتاة اليتيمة (عبير) بغنماتها الثّلاث، كانت تحرق قلبي حُزناً!

كيف للطفل أن يعيش بلا أبٍ!

أم إنها هكذا..... ولدت بلا أب!

لا أعرف؟

البارحة صباحاً ونحن نهمّ بالخروج إلى المرعى قالت لنا أمّها:

غداً يومٌ جديدٌ لكليكما!

أعطتها (اللّفة) مع (قنينة) الماء وغادرنا.

سألتُ عبير عن قصد أمّها؟

قالت إنها لا تعرف!

وفي اليوم التالي لم نخرج إلى المرعى.

جرّني أبي من يدي إلى الحلاق، ثم وضعتْ أمّي رأسي في حجرها، فتّشته من القمل، حمّمتني جيداً وهي تغنّي بسعادةٍ غامرةٍ.

وفي صباح اليوم التالي ألبستني ثياباً جديدةً، سرّحتْ شعري، وضعتْ لي عطراً من زجاجةٍ قديمةٍ، ثمّ أمرتني بالذّهاب إلى بيت أم عبير التي كانت تنتظر على الباب وإلى جوارها ابنتها، التي بَدَتْ بضفيرتيها اللامعتين ووجهها المدور جميلةً جداً كدميةٍ في علبة!

أمسكتُها من يدها واتجهنا إلى المدرسة الابتدائيّة، أمها وأمي تراقبانا بابتسامة حتى غبنا عن النّظر.

كنّا نتعثّر في الطّريق التّرابيّ، فتارةً أجرّها، وتارةً تجرّني إلى أن وصلنا عالمنا الجديد.

مرّت الأيام والسّنون مسرعةً كلمح البصر!

(عبير)، طبيبة أسنانٍ، رقيقةٌ أنيقةٌ جداً كقرنفلة.

أذكّرها بخوفها عندما وَلَدَتْ إحدى غنماتها في المرعى، وتُذكّرني كم تعثرتُ بحذائي في اليوم الأول للمدرسة، وأنا أشرب القهوة الصّباحيّة وأراقبها وهي تسرِّح شعر طفلنا الصّغير استعداداً للذّهاب إلى المدرسة.

القلب الدّافئ

لما دخلتُ حجرتها وجلست إلى جوارها صامتا على غير عادتي قالت:

خيرا إن شاء الله؟

ماذا فعلت اليوم؟

هل كسرت صحنا لأمك؟

أم أضعت مفاتيح الجرار لأبيك؟

أم أخذت وسطا في الإملاء؟

أم فعلت كل ذلك!؟

نظرتُ إلى وجهها، فابتسمتْ وقالت:

بعد قليل سنعرف!

ولمّا سمعتُ خطوات أبي تقترب من بابها، سارعت للاختباء وراءها، فقالت:

لا تخف يا ضنايَ...

كان أبي يحمل في يده شبرين من خرطوم المياه الذي يلهب به مؤخّرتي عادة!

سألَته ماذا تريد؟

أجاب أريد هذا الذي يختبئ وراءك أمّي، لا بدّ من تأديبه، لقد شجّ رأس ابن جارنا!

قالت:

أخرج من هنا، لن تمسّه ...

قال: أمّي، أريد. ..

قالت: اخرس واخرج، إيّاك أن تضربه، إذا جاءني يبكي سأغضب عليك، هيا انقلع من هنا!

غادر وقد امتلأ غضبا مني.

لا أحد يجرؤ على أن يكلّم أبي هكذا من دون ردّة فعل منه إلا هي، تستطيع أن تؤنّبه، وترفع صوتها عليه، بل وتضربه إذا شاءت من دون أن يرفع نظره في وجهها .

هدّأتْ من روعي، وقامت إلى صندوقها الخشبيّ فلحقتُ بها لعلمي بما يضمّ!

قالت:

اقترب يا جروي الصّغير، ناولتني حبّات من التّين المجفّف وحبّات من الجوز، فامتلأت يداي الصّغيرتان.

صندوق جدّتي عالم آخر، عالم سحريّ، أو قطعة من الجنّة تضمّ ما لذّ وطاب، تفوح منه رائحة معتّقة لا أستطيع تحديدها بدقّة، ولكن تغلب عليها رائحة النّعناع المركّزة التي تصدرها زجاجة (أبو فاس) الصّغيرة التي تدهن منها ركبتيها، أو تضع منها على جبينها إذا داهمها وجع الرأس.

وتخبّئ به علبة من العسل، تكحّل به عيون أحفادها الرّمدة، أو تضع منه على جروحهم الملتهبة.

وفي زاويته توجد قطعة قماش بيضاء تلف بها ما أبقاه الدهر لها من ذهب (مبرومتها العزيزة)، وإلى جوارها صورة صغيرة لجدّي رحمه الله...

وفيه أيضا صرّة ورديّة مشدودة بإتقان تضمّ ثوبا له، رفضت أن تتصدّق به كباقي ثيابه ليبقى ذكرى. كما تضع فيه قطعة قماش كحليّة ستجعل منها ثوبا تلبسه عندما تخطب لعمي الأصغر بعد أن ينهي خدمته العسكريّة، وعقدا من حبّات العقيق المدهشة في ألوانها، تضعه في يدي لأتأمله لعلمها بحبّي لذلك، ومكحلة من الفضّة المزخرفة ورثتها من أمها. وبعض الأوراق النّقديّة التي تخصّصها لتشتري لأحفادها هدايا إذا ألمّ بهم مرض طارئ، أو نجحوا في المدرسة ...

تغلق الصّندوق، تدنيني منها وتقول:

يا بنيّ، لا يجوز إيذاء النّاس، والجيران خاصة، بل يجب علينا مساعدتهم عندما يحتاجون، فهذا سبب من أسباب رضا الله ودخول الجنّة...

يا بني عليك أن تطيع أباك وألا تعذّب أمّك، فغضب الوالدين يضرّك كثيرا في دنياك وآخرتك...

يا بني أريد أن أراك طبيبا قبل أن أموت، فاجتهد في مدرستك، هل تعدني بذلك؟

أشرتُ برأسي موافقا وأنا ألتهم ما أعطتني، هذه ليست المرّة الأولى التي تقدّم فيها نصحا لي، وفي كل مرّة كان يدخل كلامها من الأذن اليمنى ليخرج من الأذن اليسرى، ولكنني الآن أذكره جيّدا وكأنّها بجواري تعيده عليّ ...

ظلّت جدّتي إلى أن ماتت – رحمها الله – ركنا من أركان بيتنا، وبركة حضورها تغطي الجميع.

عندما كانت على فراش الموت أوصت أبي ألا يضربني، وأوصتني بما كانت توصيني به دائما...

بعدها، صرت كشجرة وحيدة في مهبّ الرّيح إلى أن صرت شابّا مكتمل العقل!

الآن، كلّما اشتقت لجدّتي أذهب إلى صندوقها الخشبيّ الفارغ المركون جانبا، أضع رأسي فيه، أستنشق بقايا رائحته المعتّقة مرات ومرات حتى أرى جدّتي بأمّ عينيّ تبتسم وتملأ يديّ الصغيرتين بالتّين المجفّف وحبّات الجوز...

الوليمة الضّائعة

بعد طول تسويف وكثرة تأجيل، قررتُ شراء ربع كيلو من اللّحمة، هذا الموضوع يحتاج إلى حسابات دقيقة، ففي داخل الحصار كل شيء بسعر فلكيّ إن وجد!

دار نقاش بين أفراد الأسرة حول الطّبق الذي سنعدّه بهذه اللّحمة، واستقرّ الرّأي على أن يكون (الكوسا المحشيّ)

لدينا كوسا طازجة من حديقة المنزل، وسيحلّ البرغل بدلا من الرّزّ في الحشوة. البارحة بعتُ آخر سهم من أسهمي في سوق السّندات العالمي، أقصد آخر جرّة غاز فارغة، وبثمنها سأشتري اللّحمة.

دعوت أختي وأولادها الأيتام إلى الغداء، كما دعوت أمّي وحماتي، وفي الوقت المناسب ذهبت إلى الجزّار...

سألني:

وماذا ستفعل بكلّ هذه الكميّة من اللّحم!؟ هل لديك وليمة؟

لم أستطع أن أحلّل كلماته، هل هي سخرية أم كلام جدّي!؟

هذا لا يهمّ، المهمّ أنني سأحصل على ربع كيلو من اللّحمة الضأن.

كان الجزّار الجشع ذو الكرش الكبير يزن اللّحمة بميزانه الإلكتروني كأنّه يزن ذهبا! ربع كيلو بالتحديد، لا يزيد غراماً واحداً.

علّقتُ الكيس الصغير الذي بحجم بيضة الدّجاجة بمقود دراجتي الهوائيّة، وقفلت عائدا إلى البيت.

وعندما وصلت الباب كانت الصّدمة والفجيعة!

لم أجد الكيس في مكانه، لقد سقط من دون أن أشعر به!

عدت أدراجي بسرعة كبيرة في نفس الطريق الذي مررت به، وعيناي تمسحان الطّريق أمامي كرادار الطّائرات، لمحتُ من بعيد طفلا، لما رآني دخل بسرعة إلى بيته، ثم مد رأسه يراقبني، عرفت الآن أين صارت الكيس، كانت علامات الفقر واضحة على بيت ذلك الطفل، سررت كثيرا أنّها كانت من نصيبه، ولم تكن من نصيب إحدى القطط الجائعة.

عدت إلى البيت دون أن أكمل البحث، قلت لزوجتي:

ناوليني التّلفاز بسرعة قبل أن يأتي الضّيوف!

هموم المعلّمات

من الواضح جدّا أن الآنسة (جولي) معلمتنا في الصّف الرّابع الابتدائي عاشقة، فهي تهتمّ كثيرا بمظهرها وأناقتها، تعطينا الدّرس بربع ساعة، وباقي الوقت تخصّصه للعناية بنفسها.

تفتح حقيبتها اليدويّة، وهي عبارة عن صالون تجميل متنقّل، بمجرد فتحها يمتلئ الفصل برائحة المكياجات، تبرد أظافرها بالمبرد، وتخرج المرآة الصغيرة، وأقلام الحمرة، وعلبا من الألوان، وزجاجات الماسكرة ثم تبدأ العمل وترميم ما فسد من مكياجها.

ترسم حاجبيها بالقلم الأسود بدقّة، ثم تضع ألوانا متدرّجة فوق أجفانها العلويّة بعدها تقلب أجفانها بفرشاة (المسكرة)، تضع قليلا من البودرة الورديّة على وجنتيها، ثم تختار من بين عدة أقلام لونا لتدهن شفتيها، تنادي أحد التلاميذ (فجر) الذي يعمل مراسلا لديها (مقابل أن تغضّ النّظر عن بلادته وكسله):

اذهب إلى فصل المعلّمة (تغريد) وأحضر لي ملقط الشّعر. خلال ذهابه وعودته تكون قد دهنت أظافرها بطلاء أحمر يتناسب مع لون حذائها، وفور عودته تمد أصابعها كأصابع ساحرة وتأمره أن ينفخ عليها ليجفّ الطلاء، فينفخ كعازف (الفلوت).

تسرّح شعرها المتموج المصبوغ بدم الغزال –كما تقول– ثم ترسل فجرا ليشتري لها علبة دخان (مور) الأخضر.

لم يطل بقاء هذا (الكازينو) المتحرك عندنا، فقد دبّرت واسطة وانتقلت إلى المدينة حيث تقيم.

جاءت بدلا منها المعلمة (أم زهير) كما تحب أن يناديها الجميع، وهي معلمة في الخامسة والأربعين، وقد دخلت في سنّ اليأس، وكأن هذا السّنّ سُمّي كذلك من أجلها، كان هذا واضحا من خلال حاجبيها العريضين المتّصلين.

كانت أم زهير تتأخر دائماً عن الدّرس الأول أو تصل على الوقت، وقد ارتدت ثيابها بسرعة فوق (بيجامة) النّوم، تعطينا الدّرس بربع ساعة، ثم تبدأ الشّكوى من أولادها الكثر، ومن زوجها العاطل عن العمل.

حقيبة يدها كبيرة، ويجب أن تكون، لأنّها تحمل فيها ما تودّ طبخه اليوم، تخرج باقة بقدونس كبيرة، تنادي الفتيات ليساعدْنها في تنسيقها، تقشّر الثّوم، تقطّع البندورة، والبطاطا وباقي المكوّنات، تضع كل ما قطّعت بأكياس، ولو كان في الفصل نار لطبخت الطّعام من دون تردّد!

تطلب من (فجر) أن يحضر معه غدا بيضا بلديّا وسطل لبن والقليل من البصل...

ونحن نمضي باقي الدرس في الثّرثرة والشّغب!

لم يستقم حالنا في الفصل إلا بعد أن جاءنا الأستاذ (فيصل) الذي أنضج جلودنا بعصاه، وجعلنا نمضي العام الدّراسيّ على ساق واحدة.

الكتاب الأصفر

أزوره لأستعير كتبه، هو لا يحبّ إعارة الكتب!

أما لي فيرحّب ويشجّع، بل ويقدّم النصائح، ويختار لي كتبا... لأنّني أعيد ما أستعيره في الوقت المحدّد.

سألته يوما:

لماذا تكره إعارة الكتب؟

قال:

هل لاحظت الأسماء المدوّنة على الورقة الأولى من كل كتاب؟

هل لاحظت أنّ كلّ كتاب يحمل اسما مختلفا؟

كل هذه الكتب استعرتها ولم أعدها لأصحابها!

والمشكلة أنّه ليس لهذا العمل عقوبة، إذا لم يعاقبني أحد، وأنا بدوري لا أستطيع معاقبة أحد، لذلك لا أعير الكتب!

ومع أنّه يحمل هذا المفهوم، إلا أنّه مثقّف من الطّراز الأول وصاحب خبرة كبيرة في الحياة!

يناقشني في كلّ كتاب قرأته، وإذا لم يقتنع بأن فكرة الكتاب قد وصلتني، يطلب منّي إعادة قراءته، يقول لي:

أقرأ ما بين السّطور، لا تكن سطحيّا، فلكلّ كتاب قرين، عليك أن تتعرّف على الكتاب وعلى ظلّه القرين، ألا ترى أنّ النّقاد يؤلّفون كتبا كثيرة حول كتاب واحد، من أين جاؤوا بكلّ هذا الكلام حول كتاب واحد؟

عليك أن تقرأ الكتاب ومعه الكتب النّقدية المفترضة.

هذا جعلني أقرأ الكتاب بتمهّل لأجتاز الاختبار الصّعب والانتقال إلى كتاب آخر.

كان يمنعني من الاقتراب من أحد الرّفوف، يقول:

من المبكّر الآن أن تقرأ كتابا من هذا الرّف، عليك أن تقرأ كل المكتبة قبل أن تقرأ كتابا منه!

هذا الكلام يزيد فضولي حتّى إنّه لمّا خرج ليحضر الشّاي، سحبت كتابا منه وخبّأته في ثيابي، شربت الشّاي ثم غادرت مسرعا إلى غرفتي.

كان الوقت ليلا، قلّبته بين يديّ، إنّه كتاب قديم جدا، قرأت عنوانه المدوّن بخطّ الثّلث، تحته سلسلة طويلة من الألقاب تنتهي باسم مهيب مكتوب بخطّ الجلي الدّيواني، تحته وبخطّ الرّقعة مكتوب: طبع في مصر.

كانت أوراقه جافّة تتكسّر بسهولة، لونها بنيّ أو أصفر عاتم، في كلّ صفحة كلام سرديّ ينتهي برموز وحروف مكرّرة وكلمات مبهمة، وأحيانا كانت بعض كتاباته مقلوبة!

على حاشية كلّ ورقة الكثير من الكتابات والتعليقات بقلم حبر سائل وبألوان مختلفة.

كانت قراءة الصّفحة الأولى شاقّة جدا لأنّها مكتوبة بطريقة قديمة لم أعهدها في الكتب الحديثة التي تنساب الكلمات فيها انسيابا مهما كان معقدا!

فانتقلت مباشرة إلى منتصف الكتاب بطريقة عشوائيّة وبدأت القراءة، حيث طلب منّي الكاتب الجلوس بطريقة معيّنة وترديد الكلمات الغريبة المدوّنة، ففعلت!

انقطع التيار الكهربائيّ في غرفتي فقط، كانت إضاءة الشّارع تصل إليها، فأنارت نصفها بشكل خافت!

فجأة، رأيت على الطّاولة أمامي رجلا قزما بطول شبر، قال لي:

لا تخف، أنت طلبت حضوري وأنا رهن إشارتك!

كاد الدّم يتجمّد في عروقي، قلت: أنا ما طلبت أحدا، من أنت؟

قال:

أنا خادمك من عالم الجنّ، أين تحبّ أن تذهب؟

قلت:

إلى حيث تعيش (سميّة الخشّاب) !

قال:

فقط أغمض عينيك!

أغمضتهما فعلا، فرأيت سميّة كأنّها أمامي بشحمها ولحمها، تستحمّ وتغني!

ففتحت عينيّ بسرعة وقلت له:

تبا لك، إنّها تستحمّ!

طلبتُ من القزم أن يغادر، فقال:

ما هكذا أغادر!

أغلقت الكتاب، ثمّ فتحته بطريقة عشوائية إلى مكان آخر، وكانت صفحة مشابهة، حيث طلب مني الكاتب أيضا ترديد بعض الكلمات الغريبة بعدد معيّن من المرّات، فرأيت أربعة من الجنّ الأقزام أمامي وقد وقفوا إلى جانب الأوّل! قال أحدهم:

بإمكانك أكل الزّجاج!

قال الثّاني: بإمكانك السّير على النّار!

قال الثّالث: بإمكانك أن تطعن نفسك بالسّيوف من دون أن تتأذّى!

قال الرّابع: بإمكانك أن تطير في الهواء!

قلت:

لا أريد شيئا من هذا، اغربوا عن وجهي الآن!

قال أحدهم ما هكذا نذهب!

وهكذا، في كلّ مرّة أقرأ فيها صفحة من الكتاب، يتكاثر الأقزام من حولي وهم يعرضون خدماتهم عليّ، فشعرت بالتّعب وتمدّدتُ في الفراش، وما إن دخلت في النّوم حتى شعرت بأنّ اللّحاف يرتفع من فوقي إلى ارتفاع متر!

أعدته إليّ، وبعد قليل ارتفع أيضا، وهكذا عدّة مرّات إلى أن يئست فنمت، وليتني ما نمت! فقد رأيت أبشع كوابيس يمكن أن يراها نائم!

وفي الصّباح، وعند تناول طعام الإفطار مع أهلي، أكلت كؤوس الشّاي كما تؤكل قطع البسكويت، ثمّ شربت إبريق الشّاي الحارّ جدّا كاملا في شربة واحدة وسط ذهول أهلي! وكلّ هذا من دون أن أشعر بنفسي.

قالت أمي لأبي:

لقد (طقّ) عقل الصّبي من كثرة ما يقرأ في الكتب!

أدرك أبي هذا الأمر، فأحضر الكتاب، وجرّني من يدي إلى صاحبنا الذي دُهش من رؤية الكتاب ومن رؤيتي بهذه الحالة! فسألني:

هل صرفت الجنّ الذين استعملتهم؟

قلت: لا أعرف!

فأجلسني إلى جواره وضع يده على رأسي وبدأ يقرأ بصوت خافت، فشعرت وكأنّني أصحو من النوم!

أعاد الكتاب إلى مكانه على الرّفّ، ثمّ بدأ بتأنيبي وتعنيفي على أخذ الكتاب خلسة، وأنا صامت لا أجيب!

نظرت إلى الرّف، كان هناك قزم يحمل بيده شوكة يشير إليّ ويضحك، بل يكاد ينفجر من الضّحك!

فقلت لصاحبي:

انظر، ذلك القزم الوغد يضحك عليّ!

نظر أبي والرجل إلى الرّف فما وجدا شيئا

قال صاحبنا لأبي:

لا بأس، لا بأس ... يحتاج إلى المزيد من العلاج، تعال به غدا!

ميراث أبي

عندما توفّي أبي رحمه الله، حزنّا –نحن أبناؤه– عليه حزنا كبيرا، بل إن قلوبنا انفطرت لفقده لأنّه لم يسعفنا الوقت لردّ جميله، فقد كان –ككلّ الآباء– يؤثِرنا على نفسه، فعندما كنّا صغارا كان يضع أمامنا قطع اللّحم، ويكتفي بما التصق منه على العظم، يضع أحذيتنا المبلّلة قرب المدفأة قبيل ذهابنا إلى المدرسة، يأكل الطّعام البائت ويترك لنا الطّازج!

اكتشفنا بعد فقده أنّه هو الذي كان يقف في طابور الفرن صباحا ليشتري لنا الخبز، وهو الذي كان يشتري لنا الثّياب الصّوفيّة لمواجهة برد الشّتاء، وهو الذي كان يحلّ لنا المشاكل قبل وقوعها!

ولعلّ أعظم ما قدمه لنا أنّه لم يدخِل الحرام إلى أجوافنا، مع العلم أنّه كان موظّفا في مكان ذي شأن، فعاش فقيرا ومات فقيرا.

لقد كنّا بارين به، مطيعين له في حياته، ولكن لا نعرف كيف نكرمه بعد موته، نحن لا نكفّ عن الدّعاء له، ولكن نريد شيئا ملموسا، هل نبني قبره بقطع الرّخام، هل نعلّق صورته على الجدار، كل هذا لا يجدي نفعاً مع من مات!

لم يترك لنا رحمه الله ميراثا سوى الثّناء الحسن ودرّاجة هوائية رافقته طيلة حياته، بل التصقت به حتّى صارت جزءا من شخصيّته، فأردنا الاهتمام بها إكراما له، جاءنا بعد وفاته الكثير ممن يرغبون في شرائها، ولكنّا رفضنا جميعا، اقترح أخي الأكبر أن يأخذها إلى بيته ليعتني بها، ولكنّا لم نرض! لأن لديه أولادا أشقياء، سيستعملونها في مشاويرهم، وسينتهي عمرها بسرعة!

اقترحت زوجته أن تبقى الدراجة عند كل واحد منا شهرا، أيضا هذه الفكرة لم ترق للجميع.

ثم اقترحت زوجة أخي الأصغر أن نتقاسمها!

نتقاسمها؟

نعم، أنتم أربعة، وكل واحد منكم يأخذ جزءا منها!

فكّكنا الدّرّاجة، وتقاسمنا أجزاءها بالقرعة، فاز اثنان من إخوتي كلّ واحد بإطار، وواحد بالجسم، وأنا بالدّواسات.

كل واحد منهم غسل حصّته بالماء والصّابون وعلقها في مضافته.

كان المراهق ابن أخي يحكي لرفاقه الشّبان عن إطار درّاجة جدّه، وأنّها من رائحة المرحوم، ولن نفرّط به مهما حصل، بل سيبقى للأجيال القادمة شاهداً على نزاهته.

منذ عدّة أيام زارني أحد إخوتي، كان يدخّن بشراهة كبيرة وقد أطرق رأسه بالأرض، بدأ بمقدمة مستفيضة حول الحرب والضّائقة المادّيّة التي ألمّت بالجميع، ثم إنّ الحيّ أبقى من الميّت ....

وأخيرا قال:

لقد بعتُ جسم الدّرّاجة وأنفقت ثمنه في سداد بعض الدّين، ثم شرب ما تبقى من كأس الشّاي دفعة واحدة وغادر مسرعا قبل أن يسمع ردّة فعلي الغاضبة!

وفي اليوم التّالي، زارني أخي الثّاني، وكرّر نفس الموقف، وزاد:

كنت آمل أن أشتري حصصكم لأعيد ميراث أبي كاملا، ولكنّ أخاك قد باع جسم الدّرّاجة وقضى على حلمي، فلم يعد للإطار أي معنى، فبعته!

بعدها بيوم، زارني أخي الثّالث، جلسنا تحت الشّجرة، استعاد بعض ذكريات الطفولة مع ضحكة مصطنعة، ثمّ عرّج على شقاوة الأولاد، فقد أسقط ابنه البكر إطار الدّرّاجة المعلّق على الجدار إلى جانب شجرة النّسب على رأس أخيه، فشجّه، فأقسَمَتْ عليه زوجته أن يبيع الإطار، ففعل وقد ندم كثيرا.

يوم الجمعة زاروني جميعا، أوصوني بالمحافظة على الدّوّاسات لأنّها آخر ما تبقّى من درّاجة أبي وأنّه عليّ ألا أفرط بها مهما حصل معي من ضغوط خارجيّة وداخليّة، وإنّني

إن فعلت، فسأكون عاقّا لأبي مضيّعا لميراثه، ناكرا لفضله، وعليّ ألا أطيع زوجتي، لأنّ بعض النّساء خرّابات للبيوت العامرة، وأنّ كل واحد منهم مستعد لشراء الدّوّاسات مهما كان ثمنها غاليا، لأنّها ذكرى أبي الغالي!

جروح الرّوح

لم أكن أعلم ماذا يعمل أبي على وجه التّحديد، فهو يذهب إلى المدرسة في الصّباح الباكر قبل ذهاب الطّلاب ويعود بعد عودتهم...

هو ليس أستاذا لأنّ النّاس لا ينادونه يا أستاذ وإنّما ينادونه (أبو عبدو) ولأنّه لا يرتدي ثياب الأستاذ الأنيقة...!

في البيت يرتدي جلباباً، وللمدرسة يرتدي حذاء من البلاستيك، وبنطالا بلون البيج عريض الأرجل، وقميصا رماديا قد استحال لونه في الظّهر والأكتاف إلى لون لا هو أصفر ولا هو رماديّ، ويضع على رأسه قبّعة صوفيّة مخطّطة بألوان هي درجات للبنّيّ...!

لم أدرك ماذا يعمل حتّى بعد أن صرت في الصّف الأوّل الابتدائيّ في نفس المدرسة التي يعمل فيها.

ولكن ومع مرور الزّمن فهمتُ أنّه كان يعمل مُسْتَخْدَماً في المدرسة!

كنتُ أراه من بعيد يغسل كاسات الشّاي، ويمسحُ طاولة المدير، ويجلس على باب المدرسة ليفتح الباب للدّاخلين والخارجين...

بَدَأتْ المشكلة في عمل أبي مع تقدّمي في مراحل الدراسة...

ففي الحصّة الأولى من كلّ يوم يطلب منّي الأستاذ مسح الكرسيّ والطّاولة من الغبار، ثمّ يجلس على الكرسيّ، يقلع حذاءه ويضع قدميه على عارضة الطّاولة ويطلب منّي غسل الحذاء من طين الشّتاء المتراكم عليه...

حتّى عند مسح اللّوح، يستدعيني في كلّ مرّة من المقعد الأخير لهذه المهمّة!

ليس هذا فحسب، بل ويطلب منّي أيضا أن أملأ خزّان المدفأة بالمازوت (من بيت أبيك) كما يقول!

طبعا لأنّني ابن المستخدَم!

حتّى عندما يضرب الأستاذ مثالا للاجتهاد يطلب منّي أن أقف ويقول موبخاً الجميع:

انظروا إلى ابن أبي عبدو، يحفظ دروسه ويكتب واجباته وهو ابن المستخدم فماذا ينقصكم أنتم!؟

في الحقيقة لم أشعرْ يوماً بنشوة الاجتهاد ولا بفرحة النّجاح بتفوّقٍ في كلّ سنة لشعوري بأنّ هذا بلا معنى، وبأنّه لا يحقّ لابن المستخدم أن يكون في المستقبل شيئا مختلفا عن أبيه... الاعتياد على هذه الحالة أمرٌ في غاية الصّعوبة، خصوصا مع وجود

أولاد لا يكفّون عن السّخرية منّي، ولعلّ أكثرهم جرأة عليّ هو حمّودة (أحمد) ابن المدير الذي يجلس في المقعد الأوّل، والذي يعامله الأساتذة كما يعاملون المدير!

كان حمّودة ينظر إليّ ويشير إلى أبي من بعيد ويضحك هو ومجموعة من رفاقه بينما أذوب في ثيابي من الحَرَج، وأتمنّى لو أنّ الأرض تتشقّق لتبتلعني...

أخبرت أبي أنّني سأحطّم أنف حمّودة، ولكنّه حذّرني بشدّة من القيام بذلك، فكنتُ كَمَنْ وضع مِلْحا على جِراح روحه...

في نهاية الدّوام من كلّ يوم يَمْضِي الأساتذة والتّلاميذ إلى بيوتهم لنبدأ أبي وأنا وأختي التي تكبرني بعامين والتي كانت تعاني كما أعاني من مضايقات وسخرية من الجميع... نبدأ جميعا بتنظيف المدرسة.

أبي يبدأ بكنس الإدارة وتنظيفها ، بينما أبدأ مع أختي بكنس الفصول والممرّات وأنا أتخيّل أنّ كلّ تلاميذ المدرسة يتفرّجون عليّ ويضحكون ممّا أفعل، وحمّودة ورفاقه خاصة...

وفي صباح اليوم التالي تكون روحي محطمة كالزجاج المكسر...

فكّرتُ أكثر من مرّة أن أترك المدرسة، ولكنّ إصرار أبي يجعلني أعود مرغما إلى الجحيم الذي يسمّونه مدرسة...

وهكذا سنة بعد سنة حتّى البارحة عندما زارني أبي في المدرسة...

هذه ليست الزيارة الأولى له بعد تقاعده وبعد أن غدَوتُ مديرا للمدرسة نفسها...

كنتُ أجلسُه على كرسيّ المدير الخاص بي على الرّغم من رفضه المتكرر... فهذا أفضل ما أقدّمه له وهو يأخذ الشّاي من يد حمّودة مُسْتَخْدَم مدرستنا النّشيط... !

متجر الدّموع

في الشّارع الرّئيس، وفي مكان بارز يجثم على صدر البلدة متجر الدّموع.

خلف الطّاولة يجلس البائع متجهّما، في الحقيقة هو إنسان مرح، ولكن عمله بائعا للدّموع يتطلّب منه أن يكون حزينا كئيبا طيلة اليوم!

قصدته لأشتري بعض الدّموع لأنني أحس بحاجة كبيرة للبكاء، لا أدري لماذا، ولكن بي رغبة بالبكاء!

استقبلني بابتسامة عريضة فقد كنا معا في المدرسة في مقعد واحد.

سألته عن أحواله، قال إنّ عمله في المتجر قد تحسّن وازدهر كثير بالمقارنة مع ما قبل الحرب.

كان هذ واضحا وجليّا بسبب التّوسعة الكبيرة للمتجر والتّحسينات والدّيكورات التي أضافها إليه! بعدما كان محلا صغيرا كمحلات بيع العطور في الأحياء الفقيرة.

قبل الحرب، كان بيعه مقتصرا على العشّاق الفاشلين، أو الطّلاب الذين رسبوا في صفوفهم، أو للتّائبين بأسعار زهيدة طالبا الأجر من الله تعالى.

لديه كل أنواع الدّموع:

دموع من الدّم

دموع بطعم ماء البحر

دموع ساخنة

دموع باردة

دموع التّماسيح

دموع محلّيّة

دموع مستوردة

ولديه جناح لدموع الفرح، ولكنّه –كما قال– صارت بضاعة كاسدة، فبات يقلّل منها على حساب باقي أنواع الدّموع حتّى غدتْ رفّا واحدا صغيرا في زاوية ميتة من المتجر، وقد أهملها حتّى تراكم عليها الغبار!

قال لي:

في كلّ سنة أتلفُ موجودات هذا الرّف بسبب انتهاء صلاحيتها لعدم وجود زبائن لها، وقد كانت لها سوقا رائجة قبل الحرب، إذ يطلبها العوانس اللاتي جاء نصيبهنّ، والطّلاب الذين نجحوا في امتحان الشّهادات، والخارجون من السّجون، والذّاهبون إلى رحلة الحجّ، والذين رزقوا بولد ذكر بعد سبع بنات...

أمّا الآن فلا زبائن لها!

الأنواع الرّائجة حاليّا هي دموع الحزن، حتّى إنّني أفكّر في إنشاء مصنع حديث لها!

وبينما نحن في حديثنا، دخلت أرملة مات زوجها في الحرب ومعها ثلاثة أطفال صغار، عاتبتْه لأنّها لم تستفد وأولادها من الدّموع التي اشترتها منذ خمسة أيام!

سألها إن كانت تبكي ثلاث مرات باليوم كما نصحها؟!

فقالت إنّها تبكي أكثر من عشر مرات!

فقلب شفته السّفلى مستغربا، ثمّ أعطاها صنفا آخر لتجربه هي وأولادها الحفاة!

وقبل أن تخرج الأرملة، دخلت امرأة مسنّة بيدها عصا تتّكئ عليها وتلهث، جلست على الكرسيّ فور وصولها، وقالت:

يا بني؛ أولادي سافروا جميعا وتركوني وحيدة كشجرة منسيّة عطشى، أرجوك، أعطني دموعا تريحني، نظرتْ إليّ وتابعت:

لا أدري لماذا ننجب الأولاد!

أليس من حقنا عليهم رعايتنا كما ربّيناهم صغارا؟! سألها إن كانت تعاني من أمراض مزمنة، فردّت إنها تعاني من كل الأمراض المزمنة، من تصلّب الشرايين وانسدادها إلى آلام المفاصل مرورا بالسّكريّ!

فناولها نوعا من الدموع يتناسب مع أمراضها!

وفي لحظة من انقطاع الزبائن، ناولني فنجانا من القهوة المرّة وسألني:

خيرا، لماذا أراك هنا؟

–أريد بعض الدّموع!

–هل ترغب في ماركة معيّنة؟

–نعم، أريد نوعيّة جيدة تريحني بعد الاستعمال!

– هاك... جرّب هذا الصّنف، وصلني البارحة، إنّه مناسب للظّروف التي نعيشها، ولكن أخشى أن تدمن عليه!

استعمله بكميّات قليلة لأنّه مركّز، لا تأخذه أكثر من ثلاث مرّات في اليوم إلا عند الضّرورة الملحّة...

إذا لم ينفعك، فلن ينفعك إلا رصاصة تطلقها على رأسك!

زوج الحمام

كنت يومها في العاشرة من عمري في بيتنا القرويّ المكوّن من عدة بيوت من اللّبن المتّجهة جميعها إلى القبلة، حيث الشّمس تلعب داخل الحجرات طوال اليوم على حدّ قول أمّي.

اختار زوج من الحمام أن يسكنا كوّةً في أعلى الجدار الطّيني. كانا زوجين في غاية السّعادة.

الذّكر ممتلئ ذو لون رماديّ منقّط بنقطٍ سود، جدّيُّ الملامح رجوليّ الحركات، لا أظنّه إلا ذا شاربين مفتولين للأعلى...

أمّا الأنثى فبيضاء شديدة البياض، أطراف أجنحتها بلون أسود كعروس خُضِّبت يداها بالحنّاء، أرجلها حمراء بضّة كأرجل أميرة لم تر الشّمس، أظافرها مشذبة صغيرة، عيناها يقظتان صافيتان كحبتي زمرّد، تمضي سحابة يومها على حافة السطح تسرِّح ريشها بمنقارها النّظيف ريشةً ريشة، كعروسٍ تجلس أمام مرآة!

تخفق بجناحيها بسعادة غامرة عندما ترى زوجها يهبط من السّماء يحمل بفمه خيوط القنب وأعواد القش النحيلة، لا أظنّ إلا أنّها ستجلب طشت الماء لينقع رجليه بعد يوم شاق!

يضع في الكوّة ما أحضره، ثم يقف على حافّة السّطح إلى جانبها ويبدأان الهديل والرّقص في دائرة كرقصةٍ شركسيّةٍ أنيقة .

ضاقت أمّي ذرعاً بجارتنا الحمامة البيضاء التي لا تراعي شروط النّظافة الصّارمة لديها ، فأمرتني أن أغلق الكوّة بكيس من القنّب ففعلتُ.

عاد الذَّكر من رحلته اليوميّة، رمى ما في فمه، وأخذ يشدّ كيس القنّب بمنقاره دون جدوى، ثم أمضى اللّيل والنّهار على باب الكوّة!

وفي المساء أمرتني أمّي بنزع القنّب من الكوة لشكّها أنّ الأنثى في الدّاخل، فطارت فور فتح الباب، ووقَفَتْ إلى جانب زوجها ، أقسمُ أنّهما تعانقا...

كان صوت الهديل مختلفاً هذه المرّة فيه فرح ودموع وشوق وسعادة...

وللمرّة الأولى تضع أمّي لهما حبّات القمح من برميل (المونة) كتكفيرٍ عن غلطتها الفادحة ، ثم غضّت الطّرف عن وجودهما في البيت.

الحمام متعةٌ للعين، ولم أكن أعلم أنه يُؤكل إلى أن قال لي أخي الأكبر إنه سيقلي الزّغاليل بالزّيت .

إنّه يشعر بالسّعادة كل شهرين وهو يمسك بالزّغاليل، بينما أغرق أنا بدموعي، هناك تحت الكوّة!

قاطعة الطّريق

كلّما عدتُ من المدرسة الابتدائيّة، كانت تنتظرني في زاوية الشّارع، الممرّ الإجباريّ الذي يوصلني إلى البيت. تمسكُ بي من ياقة المريول وتصفعني بلا سبب!

وكنتُ أقول في نفسي قبل قليل:

لو قَطَعتْ عليّ الطّريق هذا اليوم، فسأضربها كما أضرب (عبود المنفاخ) سأجمع قبضتي لأهوي بها على أنفها الصّغير حتّى يسيل منه الدّم، فأتذكر كلمات أبي الذي يضربني كلما ضربت أختي الصّغرى:

البنات لا يُضْرَبن، البنات لا يضربن...

فلا أضربها، بل أكتفي بتلقي الصّفعات بغيظٍ شديد وأنا أصيح في وجهها بأعلى صوتي وعيوني ممتلئة بالدّمع:

البنات لا يضربن ... البنات لا يضربن ...!

أمضيتُ المرحلة الابتدائيّة هكذا، تنصِبُ لي كمينا شبه يوميّ! تختلق الحجج، وتستحضر الظروف حتّى تقطع عليّ الطريق!

تارة تتهمني بسرقة قلمها!

وتارة تتهمني بالوشاية عليها للمعلّمة!

خشيتُ أن أشكوها لأبي لأنّه سيسمعني مقولته المشهورة:

الرّجال لا يبكون، والبنات لا يضربن!

لذلك كان عليّ أن أصبر على هذا البلاء الدّائم ...

مرّت الأيّام مسرعة، أنا أزداد طولا، وهي تزداد جمالا ورقّة. لم تعد قاطعة طريق، لقد توقفت عن عادتها منذ سنوات... حتى تمنيت لو أنّها تعود لعادتها القديمة لتكون أجمل قاطعة طريق في العالم، ولكن هيهات هيهات!

كنتُ أراها أحياناً في طريقنا إلى المدرسة الثانوية، وبودِّها لو توقفني لتعتذر منّي، كنت أرى ذلك في عينيها الجميلتين!

هي اليوم مدرِّسةٌ مشهورةٌ بمهارتها، يحرص الجميع – وأنا منهم – على تسجيل أولادهم في فصلها.

البارحة قال لي ولدي الصّغير:

أبي، تقول لك معلمتنا: البنات لا يُضربن ..!

فأمسكته من أذنه وسألته: من ضربت اليوم أيّها الشَّقي؟

– نور، ابنة المعلّمة!

– أما قلت لك ألف مرّة إنّ البنات لا يضربن، البنات لا يضربن ...!؟

المغرورة

كان عليّ أن أصحو باكراً كلّ يومٍ لأتمكّن من الذّهاب إلى المدينة ب (ميكروباص) أبي الوفا، فمواعيده دقيقةٌ، أكثر دقّةً من مواعيد إقلاع الطائرات أو هبوطها.

له رحلتان إلى المدينة فقط، رحلة الذهابِ في السّابعة صباحاً، ورحلة الإيابِ عند الثّالثة بعد الظّهر.

يطلق الزّمور ثلاث مرات طويلة متتالية كصفّارة القطار البخاريّ، كأنّه يقول: على الجميع أن يركب الآن، وإلا فاته القطار...!

الذين يذهبون إلى المدينة يوميّاً لهم مقاعد معروفة لا يجلس عليها أحد غيرهم.

أمّا أنا فمكاني في الأمام على غطاء المحرِّك، لأنني مكلفٌ من أبي زينب شخصيّاً بجمع الأجرة من الرّكاب فأنا – كما يقول – فهيمٌ أدرس في الجامعة وأحسنُ الحساب.

تصعد (أم فايز) وتلقي دجاجتين بلديتين مربوطتين من قدميهما في أرضيّة الحافلة متجاهلةً نقد (أبي زينب) اللاذع وتمتماته المتذمّرة وغير المفهومة، ثم يسكتُ عنها عندما يصعد (أبو محجوب) بخروفه المصاب بالإسهال ليبدأ به...!

تصعد الفتاة المغرورة (حسيبة) بنت أبي أيّوب ...!

مغرورةٌ لأنّها الوحيدة التي تتحدّث الإنكليزيّة في القرية، فهي تدرس الأدب الإنكليزي في الجامعة، ومغرورةٌ أيضا لأنّها جميلةٌ جداً!

لن أصفَ لكم عينيها الكحيلتين بلا كحلٍ، ولا وجهها المدوّر كبدرٍ في السّماء، ولا ثغرها الورديّ كبتلات زهر اللوز، ولا طولها الفارع كنخلة، ولا كم هي نديّةٌ كنبتة نعناعٍ بريّ على كتف ساقية!

لن أصف شيئاً منها على الإطلاق... !

سأكتفي بالقول إنّها جميلةٌ ومحمّلةٌ بشحناتٍ هائلةٍ من الغرور،.

لا تعيرني أيَّ اهتمام كما تفعل (عجيّات) القرية، ولا حتّى بنظرة!

وأنا أيضاً أتمنى لو أكسر لها أنفها الصّغير الذي يكاد يرتطم بالغيوم !

بُعيد مسير الحافلة يأمرني أبو زينب بجمع الأجرة وكأنني أجيرهُ!

تناولني(حسيبة)الأجرة وتُعرضُ بوجهها جانباً،

لماذا كلّ هذا الغرور يا بنت الـ .... وأبوكِ موظف درجة ثانية في البلديّة ولا يملك فدّاناً واحداً في القرية!

إنّ الذي يرى ما بيني وبين (حسيبة) من جفاءٍ يظنّ أنَّ أبي قد قتل أباها.

بعد أقلّ من ساعةٍ بقليل، تصل الحافلة إلى المدينة، ينزل الجميع، أسيرُ وحيداً إلى مدخل الجامعة، أنتظر (حسيبة) التي تصل وعلى وجهها ابتسامةٌ أجمل من الرّبيع كله.

تقول لي:

صباح الخير، وتخرجُ من بين كتبها وردةً بيضاء تقدمها لي.

أمدُّ يدي إلى جيبي لأخرجُ قطعة شوكولاتة وأضعها في يدها ونسيرُ معاً كأجملِ حبيبين!

حمّام الخميس

أدخل البيت مرهقا عند المساء، فقد أمضيتُ النّهار جريا وراء الإطار، أو في عراك مع الأولاد، حتّى إنّ آثار مخالبهم على وجهي لا تنقطع!

اليوم هو الخميس، أوصتني أمّي أن أعود باكرا من أجل الحمّام.

تحمّمني مرّة واحدة في الأسبوع، على الرّغم من حاجتي اليوميّة للحمّام.

لا أعرف لماذا؟!

ربّما لأنّها مشغولة دوما بالعجن والخبز والحقل والبهائم، أو ربّما لأنّها تسخّن الماء على نار الموقد، وهذا يستهلك الكثير من وقتها الضّيّق، أنا أعذرها، إنّها تذيب نفسها من أجلنا!

ألجُ الباب، أقف أمامها، تنظر إليّ بحدّة وصرامة، تمسك رأسي، تنظر إليه ثم تقول:

يا ويلي! لماذا لم تذهب إلى الحلاق، من أين جاءتك جيوش القمل هذه!؟

تنزع ملابسي كلّها، تملأ كفّها بالكاز، وتفرك بها فروة رأسي، تتأمّل جسدي النّحيل، وتلمس بحنان تلك البقعة البنفسجية على ظهري ثم تقبّلها، لعلّها تبرأ بسرعة، فمنذ

ثلاثة أيام ضربتني بالحذاء على ظهري عندما حاولت الهرب إثر كسري سراج الكاز ..

تأمرني بالجلوس جانبا، ثم تذهب إلى الموقد لتفقّد الماء.

ليس لدينا حمّام، ففي الصّيف تحمّمني في صحن الدّار وأنا جالس في الطّشت النّحاسي، وفي الشّتاء تحمّمني في عتبة البيت.

تصبّ عليّ الماء السّاخن، أتذمّر، فتقول:

اخرس، لا ينظّف جسدك إلا الماء السّاخن!

تغسل رأسي ثلاثا بنفس الصّابون الذي تغسل به رقاع أخي الرضيع قائلة:

الصابون لا يحمل خُبثا، ليت البشر كالصّابون.

ثمّ تليّف جسدي ثلاثا أيضا بكلّ ما أوتيتْ من قوّة، حتّى أظنّ أنّ جلدي قد تبدّل!

تلفّني بالمنشفة، ثمّ تساعدني في ارتداء الثّياب النّظيفة معلّقة مع كل قطعة ثياب أرتديها:

يلزمك ثياب داخليّة، بدلا من هذه المليئة بالثّقوب!

نسيتُ أن أبدّل مطّاطة سروالك الرّخوة

هذا ثوب أخيك، صار صغيرا عليه، جرّبه...

الآن صرتَ من بني آدم، أرجو أن تبقى نظيفا ليومين متتاليين فقط!

تعفّر رأسي بالمسحوق الأبيض القاتل للقمل، الذي من المفترض أن تضعه قبل

الحمّام، ثمّ تبرّر ذلك من دون أن أسألها:

لكي يبقى في رأسك أطول مدّة ممكنة!

بعد الحمّام، أشعر باسترخاء وبراحة غريبة، وتبدأ أمواج النّوم بالزّحف نحوي، فأدخل في نوم عميق عميق!

إنها الآن فرصة أبي لينجب المزيد من الأولاد!

زينـب

الرّتابة المتكرّرة، والأيّام التي تعيد نفسها؛ هي السّمة العامّة للعطلة الصّيفية في القرية، لقد عرفتُ أزقّتها زقاقا زقاقا، وحفظت ألوان أبواب بيوتها وأشكال الشّبابيك، وميعاد وضع البيض في كلّ قنّ، وكم نجمة نحاسيّة على الباب الكبير للمسجد، وحفظت شتائم كبار السّنّ الذين يجلسون على الدكّة عقب صلاة العصر.

أعرف كلّ الطّرقات الزّراعيّة الضّيقة التي ترافق التّرع والسّواقي وتنحني بانحناءاتها، أحفظ أماكن المغارات شرقيّ القرية التي تشبه مناجم الفحم الحجريّ، والتي تستخرج منها النّسوة التّراب الأبيض لترميم البيوت الطّينية قبيل موسم الشّتاء ...

أعرف كل هذا كموسوعة صغيرة، ولكنّه شيء مملّ!

في آخر الصّيف أشتاق إلى المدرسة، ليس لأنّني أحبّها، فهي أيضا تجعل أيامي مهذّبة ورتيبة، ولكن أفعل ذلك لكي أخرج من جوّ الصّيف الذي تمر أيامه ببطء وتثاقل، وكأنّ الزّمن قد توقّف!

وربّما أشتاق إلى المدرسة أيضا لأنّني أشتاق إلى زينب، فقد مضى الصّيف من دون أن أراها، لأنّ أهلها يسكنون في حقلهم البعيد عن القرية طيلة الصّيف. لا أعرف ماذا أسمّي هذه العلاقة التي تربطني بها الآن، أنا لا أكلّمها في المدرسة وهي لا تكلّمني

ولا حتّى كلمة واحدة، فهي مجتهدة جدّا، وأنا كسول أجلس في المقعد الأخير كمعارض سياسيّ منفيّ في جزيرة بعيدة، أجلس إلى جوار فوّاز وغالب، اللذين رسبا في المرحلة الابتدائيّة أربع سنوات، فهما الآن بحجمي مرّتين!

ذهبتُ في اليوم الأول من العام الدراسيّ إلى المدرسة متأخّرا، رأيت المدير يلوّح بعصاه على الباب، يستوقف كلّ متأخّر ليلهب كفّيه بخمس عصيّ رشيقة...

فتردّدتُ في الدّخول، ووقفت في زاوية الشّارع، أراه ولا يراني.

كانت زينب تركض كمن فاته القطار، بدتْ من بعيد بوجهها المدوّر كقرص دوّار الشّمس، وخلفها تلهث جدائلها الشّقراء اللامعة المشدودة بعناية كحبل البئر، مربولها مكويّ بإتقان تظهر كَسْراته كطيّات الأكرديون!

أوقفها المدير على الباب وأنّبها لتأخّرها، ثم أخذ يضربها بالعصا على يديها الصّغيرتين! بلا شعور وجدتُ نفسي أقترب منه مسرعا، أمسكتُ العصا وقذفتها إلى أقرب سطح! دُهش المدير، ولكنّه لم يبد أيّ ردّة فعل! ثمّ أمرنا بالدّخول إلى الفصل.

في الاستراحة ما بين الدّرسين، جمع المدير الطّلاب والمدرسين في باحة المدرسة، اخترق أرتال الطّلاب إلى أن وصل إليّ، شدّني من أذني، كمن يشدّ شاة من ساقها إلى

الذّبح، أوقفني أمام الجمع! نادى البغلين فوّاز وغالب، أدركتُ أنّه سيستغلّ الموقف ليربّي بي المدرسة كلّها في بداية العام الدراسيّ!

يعرف البغلان مهمتهما جيّدا، فألقياني أرضا، ثمّ رفعا ساقيّ، نزعا الحذاء، فصرت لقمة سائغة له فانهال على قدميّ ضربا بالعصا بلا رحمة!

وبعد أن استردّ كرامته المجروحة، أمر الجميع بالدّخول إلى فصولهم بسرعة.

نهضتُ بصعوبة، بحثتُ عن كرامتي المهدورة، فلم أجدها، حملتُ حذائي بيديّ، ومشيت ببطء إلى الفصل، ولمّا ولجت الباب ضحك الجميع عليّ، إلا زينب التي ما إن رأتني حتّى هوتْ برأسها على المقعد وانفجرتْ بالبكاء!

لوحة على جدار

أصحو باكرا في كلّ يوم، أشرب كأسا كبيرا من الماء، ثمّ أسحب نفَسا عميقا، أحبسه قليلا في صدري، ثم أزفره بقوّة.

بعدها أشحن نفسي بالمزيد من الصّبر والتّفاؤل، أفرش حصيرة صغيرة من النّايلون وقد نُسِجت عليها عبارة:

الهيئة العليا لإغاثة اللاجئين.

أجلس عليها متربّعا ك (بوذا) إلا أنه سمين كمنطاد وأنا نحيف كخيط مستعمَل، أغمض عينيّ لأدخل في جلسة اليوغا التي لا أعرف عنها أكثر من اسمها، أمد يدي إلى ركبتيّ ضامّا السبّابة إلى الإبهام، وأركّز وأركّز لعلّ الحصيرة تطير بي كما يطير بساط الرّيح فتخرجني من هذه المنطقة المحاصرة بالحرب!

بعد خمس دقائق من التّركيز غير المجدي شعرت بألم في عصعصي ومفاصلي، فنهضتُ نهوضا مؤلما، ركلتُ الحصيرة وشتمت بوذا ويوغا ومريم نور، وهرعت أتفقّد الهواء في إطارات دراجتي الهوائيّة بأطراف أصابعي للخروج بحثا عن الخبز. خرجت إلى الشّوارع الخالية للبلدة شبه المهجورة مستمتعا بالهدوء وبقراءة الجداريّات من العبارات الجميلة واللوحات الرّائعة على الجدران المثقّبة والأسقف المتداعية.

لفت نظري اليوم لوحة مرسومة على ما تبقّى من سور مدرسة مدمّرة، وهي عبارة عن رسمة باب، مجرّد باب، أحد مصراعيه مفتوح ويخرج منه نور.

كانت لوحة جميلة جدّا مرسومة بإتقان، لعلّ الأمل هو أهمّ معانيها.

بعد شراء الخبز، رجعت من نفس الشّارع لأتأمّل اللّوحة من جديد، ولكن هذه المرّة أصابني الذّهول وشيء من الخوف!

كان مصراع الباب يتحرّك مع نسمات الصّباح، ويصدر زقزقة خافتة كعزف (كمنجة) بعيد!

شيء ما كان يدعوني للولوج داخل الباب، تركت الدرّاجة على الرّصيف واقتربت بحذر حتّى عبرتُ،

فوجدت نفسي في خيمة لقائد الفتوحات المشرقيّة محمّد بن القاسم الثّقفي!

كان بكامل عتاده: خوذة ودرع وسيف...

تحيط به مجموعة من قادة الجند يتباحثون في شأن معركة على وشك الوقوع.

نظر إليّ، وأشار بيده أن أجلس جانبا فجلستُ أستمع لما يقولون. مددت يدي إلى جيبي لأخرج الهاتف فألتقط لهم صورا، ولكنّي تذكّرت أنّي تركته في البيت لعدم الحاجة إليه في مثل هذا الوقت من النّهار، فانصبّ تركيزي على تدبيج عبارات باللغة العربيّة الفصحى هي إجابات لأسئلة محتملة من محمّد بن القاسم!

وفعلا، فور انتهائهم نظر إليّ وسألني:

من ومن أين وماذا تريد؟

فقلت له بالفصحى التي أجهدتني:

أنا مخدومكم من الشّام، ولا أعرف ماذا أريد!

نظر بدهشة إلى أصحابه وسألهم:

من منكم يعرف لغة الرّجل!؟ فلم يجبه أحد!

وقفت وأعدت الكلام بهدوء وبفصاحة أكثر وبنبرة رجولية أشدّ وأبلغ... !

فزادت دهشته، وكان من الواضح جدا أنّه لا يفهم ما أقول!

فأشار إلى الباب وقال:

اخرج يا رجل، ليس لدينا وقت لإضاعته معك، فنحن أمام حصن حصين إن فتحه الله علينا فإنّ بلادا واسعة ستفتح بعده. ..

فرميت بجسدي عليه ورجوته أن أكون من جنوده، وهو يحاول إبعادي عنه ولا يستطيع، فقال لأصحابه: خذوا هذا الأعجميّ خارج الخيمة!

فمازالوا يشدّون حتّى وقعت أرضا، فأمسكت بساقه ثمّ بفردة حذائه حتى اقتلعتها من قدمه، عندها أوصلوني إلى باب الخيمة وألقوا بي خارجا لأجد نفسي على الرّصيف وبيدي فردة الحذاء!

حاولت العودة، فارتطمت بالجدار مرارا، كان الباب مفتوحا، ولكنّه مجرد رسم!

وجود فردة الحذاء غريبة الشّكل في يدي جعلني أعود إلى الباب مرّة أخرى، تلمّسته من جديد، طرقت عليه مرارا ولكن ما من مجيب...

ماذا أفعل؟ هل فقدت عقلي؟ إنه مجرّد رسم على جدار! درتُ حول الجدار دورة كاملة، لا توجد خيمة خلفه!

جلست قليلا أمام الباب لعلّه يفتح، ولكن بلا فائدة.

وعندما يئست، عدت إلى البيت مشيا، لأن لصّا سرق الدراجة والخبز في غيابي!

ساحرة في الحافلة

صعدتُ الحافلة، وجلست قرب النّافذة أتأمّل القادمين والمسافرين في محطّة الحافلات. ظهرتَ من بعيد شابّة شديدة الجمال، أخذ ألقها يزداد كلّما اقتربت، طويلة كنخلة بغداديّة، تميل إلى السّمرة، وجهها صافٍ كأنّه المرمر، وثغرها كقرنفلة حمراء تفتّحت لتوّها، أما عيناها فكقصيدتي غزل!

تحمل حقيبة صغيرة، وفي يدها الأخرى كتاب تطلّ منه وردة حمراء كعصفور صغير يطلّ من عشّ.

قلت في نفسي: ليتها تصعد الحافلة، إنّها فعلا تصعد ، تناول المعاون تذكرتها، فأشار لها إلى جواري!

كلّمتني بنغمة بَيَات: صباح الخير، هل لي بالجلوس قرب النّافذة؟

كانت تضع عطرا خفيفا كرائحة البحر، أو خُيّل إليّ ذلك.

المسافة طويلة جدّا ما بين مدينتي والمدينة التي أكمل فيها سنتي الدّراسيّة الأخيرة، لذلك فتحتُ كتابا وتظاهرت بالقراءة.

في الحقيقة، كان عقلي مشغولا بهذا الملاك الذي يجلس بجواري! ومع تحرّك الحافلة كانت تنظر إليّ بتلصّص بارع لا يكتشفه إلا خبير مثلي، بينما كنت أسترق النّظر إليها

وأنا أدّعي النّظر إلى النّافذة!

وبعد ساعة من مسير الحافلة، أغلقتُ الكتاب وأسندت ظهري إلى الكرسيّ، فقالت بأدب بالغ:

هل لي بالكتاب قليلا؟!

فقلت لها: بكلّ سرور ...

ومع وصولنا إلى محطّة الاستراحة الأولى، أعادت الكتاب بابتسامة مشرقة وهي تقول:

لم أفهم شيئا، إنه أقرب إلى الكيمياء، وأنا لا أحبّ الكيمياء!

أجبتها: إنه كتاب بعلم الأدوية، وهو اختصاصيّ وليس للثّقافة العامّة، هل تقبلين دعوتي إلى فنجان من القهوة؟

وافقت بعد تردّد مصطنع، وأعتقد أن قلبها كان كقلبي، يرفرف كطير حمام يتعلّم الطّيران!

بدأنا حديثا جدّيّا، أعرّفها على نفسي، وتعرّفني على نفسها، كنّا متحمّسين جدّا للحديث، وكأن كلّ واحد منا قد وجد ضالّته!

هكذا إذاً ... أنا أدرس في مدينتك، وأنت تدرسين في مدينتي!

تناولتْ الكتاب من يدي، دوّنتْ عليه عنوانها ورقم هاتفها، ثمّ أعطتني دفترا صغيرا دوّنت عليه عنواني ورقم هاتفي!

وضعَتْ وردتها الحمراء في جيب قميصي، فشعرتُ بسعادة غامرة سَرَتْ في عروقي. أسندتُ رأسي إلى الوراء وأغمضتُ عينيّ لأشعر بلذة الموقف كمن يتذوّق القبلة الأولى، فأخذتني سِنة من النّوم!

شعرت بالحافلة تنعطف يمينا للوقوف في محطّة الاستراحة الثّانية، فتحتُ عينيّ مبتسما، نظرت صوبها فلم أجدها!

يا الله، أين ذهبت؟!

لا يمكن أن تغادر من دون أن أفسح لها مجالا!

نظرتُ في مقاعد الحافلة كلّها فلم أجد لها أثرا!

سألت معاون السّائق: أين الفتاة التي كانت تجلس هنا إلى جواري؟!

قال: لم تركب في الحافلة أيّ فتاة، لابد وأنّك مرهق من السّفر الطّويل يا أستاذ!

صحت: مستحيل!

أخرجت الكتاب فلم أجد ما كتَبَتْه، كانت الورقة بيضاء تماما!

نعم، أنا مرهق، ولكن من وضع هذه الوردة الحمراء في جيب قميصي؟!

جسر بين قلبين

يمرّ النهر بين بيتنا وبيتهم كأنّه حدود ما بين دولتين، يحظى جانبنا بالمدرسة الابتدائيّة؛ لذلك يتوجّب عليها عبور الجسر الخشبيّ الضّيّق للوصول إليها كلّ يوم.

جاءت أمّها إلى أمّي لتستأذنها في أن أذهب إلى بيتهم كلّ صباح لأساعد ابنتها في عبور الجسر، ثمّ العودة بها ثانية بعد انتهاء الدّوام، فأنا أكبر منها بثلاث سنوات وهي تخاف من عبور الجسر!

كانت فيروز وحيدة أهلها، أبوها يملك متجرا في المدينة، مدلّلة جدّا، ترتدي ثيابا نظيفة تفوح منها رائحة الّليلك، لا أدري إن كان هذا عطرا أم هي رائحة منظّف الغسيل!

وجهها أبيض مدوّر كالرّغيف، ممتلئ بالعافية، تبدو عروق الدّم في وجنتيها حمراء زاهية، شعرها أحمر رطب لامع كأنه شعر كيزان الذّرة!

كلّ هذا جعلها تبدو كبارونة ارستقراطيّة متعجرفة! أنا مستاء جدّا من هذه المهمّة الطّارئة، إنّها تفتح عليّ باب السّخرية أمام الأولاد، كما تفرض عليّ أن أكون شديد التّهذيب ودقيقا في مواعيدي! وهذا ما لم أعتد عليه من قبل...

طرقتُ بابهم بلطف كما أوصتني أمّي، فخرجت هي ووالدتها التي ناولتني تفّاحة حمراء ناضجة هشّة، بدأتُ بالتهامها فور ابتعادنا عن البيت.

وصلنا الجسر الذي اقتحمته قبلها، وصلت إلى منتصفه، نظرت خلفي، كانت ما تزال تقف في بدايته! كلّمتها للمرّة الأولى: هيّا، تقدّمي!

ولكنّها لم تنطق ولم تتحرّك، رجعت القهقرى، فمدّت يدها طالبة أن أجرّها ففعلت، أغمضت عينيها وبدأت بخطوات خائفة!

لم يكن الجسر ضيّقا كثيرا، ولكنّ الماء يهدر تحته كالوحش!

فور عبور الجسر سحبَتْ يدها من يدي التي ظلّت محمّلة برائحة اللّيلك حتّى المساء!

هذا الأمر يتكرّر كلّ يوم مرّتين، وفي كلّ مرّة تزداد سخريتي منها، وهي تزداد صمتا وكأن الأمر لا يعنيها، حتّى توقّفت عن سخريتي التي لم تفلح في إخراجها عن طورها، لقد فشلتُ، بينما نجحتْ هي في جعلي هادئا محترما معها، بل ومع الآخرين أيضا.

ومع مرور الأيام، ازداد إعجابي بأدب فيروز وجمالها وعقلها الرّاجح الذي كنت شاهدا على نموّه وتطوّره، ما جعل منها كقطعة حشيش مخدّر، وجعل منّي مدمنا على رؤيتها كلّ يوم! فأراني أذهب –كالمسحور– صباحا إلى بيتها من دون أن تأمرني أمّي بذلك! فيروز من الداخل كما هي من الخارج، نقيّة، بهيّة، تحفظ الكثير من الأغاني والأشعار،

عرفت ذلك بعد أن ذاب الجليد بيني وبينها، حتى إنّها لم تعد تترك يدي بعد عبور الجسر.

لم تكن الخالة أمّ فيروز تبخل عليّ بالفاكهة والحلاوة والنّقود إلى أن غدوت شابّا، فصرت أتعفّف وأخجل من أن آخذ شيئا منها!

أمّا فيروز فلم تتخلّص من رُهاب عبور الجسر حتّى بعد أن كبرت!

خطبها أحدهم منذ شهرين، وستخرج عروسا، ولكن عليها أن تعبر الجسر... أمّها تطرق الباب كما طرقته قبل خمس عشرة عاما، تقول لأمّي:

هل لولدك أن يعبر بفيروز الجسر!؟

قتل بالخطأ

أمّي تراقبني بسعادة وهي تخبز، بينما ألهو بالقرب منها. كنت منهمكا في صناعة (النّقاف) لقد استهلك من عمري الغضّ أسبوعا كاملا حتّى صار جاهزا.

ملأتُ جيبي بالحصى المنتقاة، ووضعت قرب جذع شجرة التّين هدفاً عبارة عن زجاجة للرّمي عليه.

رجعت إلى الوراء عشر خطوات وبدأت الرّمي، استهلكت نصف الحصى ولم أصب الهدف! أمّي تخبز وتبتسم، صاحت:

بنيّ، اقترب من الهدف أكثر...!

فاقتربت خمس خطوات دفعة واحدة، ومع ذلك لم أصبه! فقالت: ضع هدفا أكبر.

قلت:

أمّي، أنا صيّاد ماهر، انظري كيف سأردي العصفور في أعلى الشّجرة! وأطلقت عليه. فاصطدمت الحصاة بجسده الرّقيق، وسقط من أعلى الشّجرة كمصيبة على رأسي! وقفت فوقه مذهولا أنظر كيف يرفرف بجناحيه وهو ينازع الموت! شعرت بدم ساخن كالماء المغليّ يجري في عروقي، وقلبي يخفق بسرعة كقطار في منحدر، ولم أعد أرى

بعينيّ!

انفجرت باكيا، وصحت بصوت مختنق:

أمي ي ي ي ...!

ظنّت أمّي أنّ مكروها أصابني، فتركت الخبز وجاءت مسرعة لترى العصفور في كفّي الصّغير ورأسه يلوّح كيد مسافر ..!

سألتها بلهفة: من أين تخرج أرواح العصافير؟

قالت: لا أعلم، ربّما من مناقيرها!

فوضعتُ منقار العصفور في فمي، أنفخ قليلا، ثمّ أنظر إليه، هل عادت روحه؟! ولكن من دون جدوى ...!

قالت أمّي وقد أشفقت عليّ:

يا بني، لقد نام العصفور!

فقلت: بل مات!

قالت: حسن، خذ قطعة القماش هذه، لفه بها وادفنه تحت الشّجرة.

فعلت ما قالت، ثمّ جلستُ ساعة من الزمن أبكي على قبره، وأمّي تعزّيني وتقول: هو في الجنّة الآن...

فأقول: كيف هو في الجنة وقد دفنته تحت التّراب!؟

فقالت: روحه في الجنة يا بني...

لم أفهم ما تقول، ولكنّني وجدتُ فيما قالت مخرجا لي من ورطتي!

حملتُ النّقاف ووضعته في التّنور لتأكله النّار، ثمّ جلست في زاوية الغرفة كقطّ مذنب تائب!

لم أتذوّق الطّعام ثلاثة أيّام إلا كرها، حتّى صار وجهي شاحبا.

قالت لي أمّي وهي تمسح رأسي:

سيغفر الله لك، لأنّك لم تكن تقصد، بشرط ألا تعود لما فعلت، وإن أنت أطعمت العصافير لوجه الله.

قال لي ولدي الصّغير:

أبي، لماذا تضع نتف الخبز للعصافير كلّ يوم؟

قلت: ليغفر الله لي يا بنيّ، ليغفر الله لي!

تمت بفضل الله...

نبذة عن المؤلف

الاسم: عبد الباسط ابراهيم واكية

الدولة: سوري الجنسية

من مواليد العام ١٩٧٤ في مدينة حمص.

– يحمل إجازة في طب وجراحة الحيوان من كلية الطب البيطري في جامعة حماة السورية.

– يكتب القصة القصيرة وأحيانا الخاطرة.

– عضو تحكيم للكثير من مسابقات القصة القصيرة.

أعمال سابقة:

صدرت له خمس مجموعات قصصية نُشرت الكترونيّاً:

– طفل بلا أثر

– مطرودون من الوطن

– مقام نوى

– مقام شوق

– مقام فرح

دار
قصص وحكايات
للنشر
الإلكتروني

قـــال :
أن نؤلّف كتاباً يقتنيه غريبٌ في مدينة بعيدة
أن يختلج قلبهُ لسطرٍ فيهِ يشبهُ حياتهُ . . .
ذلك هوَ مجد الكتابة .